الإمام أبو جعفر بن جرير ومنهجه في التفسير

الدكتور
إبراهيم توفيق الديب
الأستاذ بكلية أصول الدين
والدعوة بالمنصورة . جامعة الأزهر

((بسم الله الرحمن الرحيم))

****

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه الى يوم الدين ٠

أما بعد ،،،

فلايماري أحد ولايمتري في أن علم التفسير من أشرف العلوم وأجلها إن لم يكن أشرفها وأجلها على الاطلاق ، وذلك نابع ومستمد من شرف موضوعه ، وعظم فائدته ، ومسيس حاجة الناس اليه ٠

فموضوعه ومادته : " القران الكريم " ، وهو كلام الله عز وجل المنزل على عبده محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، المعجز ، المتعبد بتلاوته ، المنقول بالتواتر ، المتحدي بأقصر سورة منه ٠

وكلامه تعالى أقدس وأجل كلام ، إنه ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة ، ومنهل كل خير ، فليس كلامه شبيها بكلام غيره ، ولا كلام غيره شبيها بكلامه ، وإنما فضل كلامه سبحانه على سائر الكلام كفضله تعالى على سائر خلقه كما ورد في الحديث الشريف (١) ٠

---

(١) رواه الترمذي والدارمي وغيرهما بأسانيدهم عن أبي سعيد الخدري وعن شهر بن حوشب رضي الله تعالى عنهما : أنظر سنن الترمذي أبواب فضائل القرآن ج٤ ، ص٢٥٦ وقال عنه : حسن غريب ، وسنن الدرامي =

فشتان ما بين كلام الخالق وكلام المخلـــوق .

وفائدته وثمرته : تدبر كلام الله عز وجل ، وتذكره وفهمه فهمـــا صحيحا بقدر طاقة البشر ، والاعتصام بـه ، وتحصيل عظيم الأجـــر وجليل الثواب ، وحسن المآب .

والناس في أمس الحاجة اليه لأنه لايمكنهم تطبيق كتاب اللــه والعمل به والسير على الدرب القويم والصراط المستقيـــم الا اذا فهموه فهما جيدا سليما ، وعرفوا مراد الله من كلامه بقدر طاقتهم البشرية وبما يمنحون من فتوحات ربانية ، واشراقات إلهية .

ولعظمة هذا المجال وقداسته هفت اليه قلوب العلماء الأجــلا ، والشيوخ الفضلاء النبلاء ، وهويته أفئدتهم ، وأشرأبت اليه أعناقهم فيمموا وجوههم شطره ، وكتب فيه من كتبوا مؤلفات كثيرة تفـــوق الحصر ، خدمة لكتاب الله تعالى ، ونفعا للاسلام والمسلمين ، ورجاء المثوبة من الله رب العالمين ، تبارك اسمه ، وتعالى جده .

وصار في تفسير القرآن الكريم كتب لاتحصى ، ومصنفات لاتستقصى وأصبح التفسير بمصنفاته أنواعا وألوانا :

فمنه التفسير بالمأثور ، أو بالأثر ، أو بالرواية كما يسمى .

والتفسير بالرأي ، أو بالاجتهاد والعقل ، أو بالدراية كما يسمى.

= كتاب فضائل القرآن باب فضل كلام الله على سائر الكلام ج٢ص١٤٤ .

ولكل منها أقسامه وأنواعه .

بيد أن المفسرين الذين يعتد بهم ويعول عليهم هم الذين توافرت فيهم الشروط ، والتزموا القواعد التي يحتاج اليها المفسر ، وتكاملت فيهم الأهلية والأحقية لهذا الميدان المبارك .

ومن المفسرين الجهابذة الأعلام ، والسادة العلماء العظام ، الذين وقفوا حياتهم لخدمة دينهم والعناية بكتاب ربهم وسنة نبيهم وحبيبهم صلى الله تعالى عليه وسلم وحفظ لغتهم ، وأدلوا بدلائهم في تفسير القرآن المجيد ، ومخروا عباب بحره اللجي ، وخضمه الواسع العظيم الفياض المعطاء ، ودونوا ما أثر عن سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم ورحمهم ، وأضافوا اليه ما راقهم وعن لهم من آراء وما فتح الله عليهم به من فهم واستنباط : الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري ، رحمه الله رحمة واسعة .

وإلى أخي القارئ الكريم نبذة وقبسة عنه ، فيها تعريف به وبمنهجه في تفسيره الكبير المسمى : (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) سائلا المولى عز وجل وهو خير مسئول ، وأعظم مأمول ، التوفيق والسداد والهداية والرشاد ، وبلوغ القصد ، فبه وحده العون وعليه التكلان ، ومنه التوفيق ، وعليه قصد السبيل ، كما أسأله جل وعلا أن ينفع بهذا البحث قراءه ، وأن يكون نورا لنا ، وفي ميزان

حسناتنا ، وأن يغفر للامام الفذ والعالم الجهبذ ، أبي جعفر ، ما لايسلم منه بشر ، ويتغمده بواسع رحمته ، وعميم إحسانه ، وكبير رضوانه ، ويجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، بفضله ومنه ، إن ربي لسميع الدعاء .

المؤلف .

((التعريف بالإمام ابن جرير الطبرى))

***

((كنيتــه واسمـــه ونسبـه))

***

هو الامام الهمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ... الطبرى الآملـــى .

اتفق المؤرخون على نسبه الى جده الأول "يزيد" ، واختلفوا فـــى ترتيب أسماء من بعد ذلك .

والامام الطبرى كان لايعنى بسلسلة نسبه ، فكان اذا سئل عـــن نسبه أجاب بذكر اسمه واسم أبيه مكتفيا بذلك .

ووصف بالطبرى نسبة الى " طبرستان " - بفتح الطاء والباء وكسر الراء - وهى كلمة مركبة من شقين :

الأول: طبر : وهو سلاح يشبه الفأس كان يستعمل فى الحروب وقطـــع الشجر فى الأزمنة الغابرة ، وفى تلك المنطقة لأنها كانـــت جبلية وعرة ، ويقال :طبر بمعنى : حفز ، ويقال طبر بمعنـــى اختفـــى .

الثانـى :إستان بمعنى : الموضـــع . أو الجهة والناحية .

ووصف بالآملى نسبة الى مدينة (آمل) - بمد الهمز وضم الميم - وهى مدينة مشهورة بتاريخها وعلمائها .

ووصف الطبرى كذلك بالبغدادى نسبة الى مدينة بغداد بالعراق حفظها الله وسائر بلاد المسلمين من كل سوء وفساد .

وألفت نظر القارىء الكريم الى أنه يوجد شخص آخر اسمه : أبو جعفر محمد بن علي بن مسلم الطبري الآملي ، وهو من المؤلفين ، له كتاب " بشارة المصطفى " ، وهو كتاب يبين فيه منزلة التشيع ودرجات الشيعة وكرامات الأولياء ويقع في (١٧) سبعة عشر جزءا وتوفي هذا الشخص في عام (٥٦٥هـ) خمسة وستين وخمسمائة تقريبا ، فأبو جعفر الطبري الآملي المذكور، غير أبي جعفر الآملي المشهور[١] .

وأن أحد العلماء وهو الكيا الهراس[٢] كان يوصف بالطبري وهو عالم مفسر لكنه لم يشتهر بهذة النسبة ، فهو غير ابن جرير الطبري لأن كنيته واسمه : أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري ، ولد بخراسان في عام (٤٥٠هـ) خمسين وأربعمائة ، ثم توفي ببغداد في عام (٥٠٤هـ) أربعة وخمسمائة ، وهو فقيه متبحر في فقه الامام الشافعي وله كتابه المشهور في تفسير آيات الأحكام ويسمى بأحكام القرآن ، وهو مطبوع متداول ، فهو غير صاحبنا وامامنا أبي جعفر ابن جرير .

وأن الإمام الطبراني المحدث ليست نسبته الى طبرستان كما قد يتوهم ، وانما نسبته الى " طبرية " بالشام ، وهي نسبة على خلاف

---

(١) انظر الذريعة الى مصنفات الشيعة لمحسن الطهراني ج٣ص١١٧ .

(٢) الكيا - بكسر الكاف وفتح الياء المخففة - معناه في لغة العجم : الشخص العالي الشأن، الكبير القدر ، ذو الصدارة والمقدم بين الناس . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج٣ص٢٨٩ .

القياس ، وهى مغايرة مقصودة لدى المؤرخين للتفرقة بين نسبة الطبرى الى طبرستان ، ونسبة الطبرانى الى طبرية ، منعا للبس والخلط بينهما ٠

والطبرانى تلميذ الطبرى كما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى وقدم الى صنعاء باليمن بعض العلماء ، ووصفوا بأنهم طبريون واشتهر بعضهم بهذه الصفة ٠

فليتنبه القارىء الى ماتقدم خشية اللبس والخلط والوهم ٠

((مولده))

***

وولد الامام العلامة أبو جعفر فى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسى فى " آمل " عاصمة إقليم " طبرستان " ، ويقع فى جنوب بحر قزوين ويتبع الآن دولة ايران ٠

واختلف فى تاريخ مولده وتعيينه : فقيل فى أواخر عام (٢٢٤هـ) ، أربعة وعشرين ومئتين ، وقيل فى أوئل عام (٢٢٥هـ) خمسة وعشرين ومئتين ٠

وكان رحمه الله اذا طولب بتحديد تاريخ مولده أجاب بالشك فيقول : فى نهاية عام (٢٢٤هـ) أو بداية عام (٢٢٥هـ) ٠

وفى يوم سأله أحد تلاميذه وهو أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف فأجابه بالشك ، فقال له : كيف يقع لك الشك فى تعيين تاريخ مولدك ؟

فأجب بقوله : كان أهل بلدنا يؤرخون بما يجرى من أحداث دون التأريخ بالسنين ، فأرخ مولدى بحادث وقع فى البلد ، فلما نشأت وكبرت سألت عن تاريخ ذلك الحادث ، فاختلف المجيبون ، وكانت إجابتهم محصورة فى ما بين آخر عام (٢٢٤هـ) وبداية عام (٢٢٥هـ).

وعلى كل فالخلاف فى تأريخ مولده سهل وهين للتقارب الزمنى بين الرأيين ، ولايتعلق بتحديده وتعيينه بدقة كبير فائدة .

((نشأته وثقافته ورحلاته))

***

ونشأ الامام الطبرى نشأة دينية علمية فى بيت طاهر نقى نقى وفى منطقة جبلية خشنة وعرة ، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين أى منذ صغره ونعومة أظفاره ، ثم أكب على العلم إكبابا بشغف ونهم ، يقرؤه فيما بين يديه من كتب ، ويتلقاه فى مختلف البلدان عن شيوخ آفذاذ ، وأئمة فطاحل ، حتى تفتق عقله ، واتسع إدراكه ، وتكاثرت ثقافته ، وتوافرت معلوماته ، وتفوق على أقرانه .

ومما ساعده على هذا : نشأته فى عهد عباسى نضجت فيه العلوم واستوت فيه المعارف ، واتسعت فيه الثقافات ، وتنوعت الإدراكات وظهر فيه علماء فطاحل ، ومفكرون رواد أماجد ، امتازوا بالدقة والتمحيص ، والنضج العقلى ، والارتقاء الفكرى ، وصفاء الذهن ، وعمق التفكير ، والاستقلال بالرأى ، كما اتسم هذا العهد وتميز على غيره

بدراسه الحديث وسبر غوره ، والعلم به رواية ودرايـــة ، ووفرة المحدثين فيه ٠

هذا إلى جانب قوة همته ودأبه ، وجلده ومثابرته ، وشدة ذكائـه ، وقوة حافظته ، وحدة عارضته ، وتشجيع أهل بيته وشيوخه له ، وكثرة ترحاله وتنقلاته للقاء الشيوخ ، واستفراغ ماعندهم من علم ، والعمل على نشره وتعليم غيره من طلابه ومريديه ، فكان كثير التنقـــلات والرحلات فى طلب العلم وبثه من المشرق الإسلامى إلى مغربه ٠

وقد شجعه أبوه على الرحلة فى طلب العلم فبدأ رحيله عن بلـده ومسقط رأسه وهو فى سن الثانية عشرة ، وقال أبو جعفر عن نفســه :

حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمـــان سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع ، ورأى لى أبى فى النوم أنى بيـن يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت معى مخـــلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر : إنه إن كبـر ابنك نصح فى دينه وذب عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى فى طلب العلم وأنا حينئذ صبى صغير ٠ (١)

رحل الى الرى ومـا حولها من البلاد - والرى مدينة قديمة تقع فى شمال إيران وولد فيها هارون الرشيد - ثم رحل إلى بغداد مدينـــة

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموى ج١٨ص٤٩ ٠

السلام ، ثم إلى البصرة ، ثم إلى واسط ، ثم إلى الكوفة ، ثم إلى مصر ثم إلى أجناد بالشام ، ثم إلى بيروت وعرض فيها القرآن على الشيخ العباسي بن الوليد البيروتي ، ثم عاد إلى الشام ، ثم إلى مصر مرة أخرى ... .

وفي كل بلد كان يرحل اليه ويحل به يتحرى الالتقاء بأفاضل شيوخه ويعمل على نشر العلم به وتعليم أهله حتى كثر شيوخه وتلاميذه ، ثم آب الى بغداد واستقر بها وطاب مقامه فيها ، وتفرغ للعبادة والتدريس والتصنيف ، وجال في كل فن وضرب فيه بسهم وافر وملأ الدنيا فقها وعلما ، ونافح عن السنة المطهرة ، وحارب الابتداع وأهله ، وتفوق في مختلف العلوم ، واشتهر بتفوقه وتميزه وتبرزه في: التفسير والحديث والقراءات والفقه والتاريخ . وترك تراثا ضخما وثروة علمية طائلة هائلة تدل على سعة أفقه ، وغزارة علمه ، وتنوع ثقافته مع وفرتها .

وقد صحت الرؤيا التي رآها له والده . وتحققت كفلق الصبح ، وصدق تعبيرها ، وصار الطبري إماما جهبذا ،بل من أكابر الأئمة الجهابذة والعلماء النحارير الذين يفخر بهم الاسلام ويعتز بهم المسلمون .

قال عبد العزيز بن محمد الطبري عنه - وهو من تلاميذه :-

" كان كالقارئ الذى لايعرف الا القرآن ، وكالمحدث الذى لايعرف الا الحديث ، وكالفقيه الذى لايعرف الا الفقه ، وكالنحوى الذى لايعرف الا النحو ، وكالحاسب الذى لايعرف الا الحساب ، وكان عالما بالعبادات ، جامعا للعلوم ، واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها ".(١)

((شيوخه وتلاميذه))

***

ولولوع الامام الطبرى بالعلم منذ صغره وشغفه به وإكبابه عليه بكليته وكثرة رحلاته وتنقلاته فى سبيله فى البلاد الإسلامية كثر شيوخه الذين تلقى العلم عنهم فى مختلف الفنون والتخصصات ، وعلت أسانيده ، وكثر تلاميذه وقصاده الذين تلقوا عنه علمه وكتبه ٠

وكان لشيوخه منزلة عظيمة فى نفسه ، ويحمل لهم كل تقدير واحترام ، وإجلال وإعظام ، ومودة ومحبة ٠

وكان يحب تلاميذه ويتفقد أحوالهم . ويسأل عمن غاب منهم . ويسترضى من غضب لسبب من الأسباب ، ويترفق بهم ، وينصحهم ، ويحرص لهم على تهيئة جو نفسى صاف يتلقون فيه علمه ، وكان يعتبرهم أبناءه إذ أنه عاش عزبا طيلة حياته ، فلم ينعم بالزواج وانما

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٦١ ٠

نعم بالعلم ، صرف له جهده كله ، ووقف حياته ووقته له ولطلابه ولاريب أن الحياة العلمية الجادة تستمر وتتجدد ويستمر عطاؤها واثراؤها بالشيخ والتلميذ معا ٠

((فمن شيوخه))

***

أ - العلامة الفهامة أبو علي الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني البغدادي : شيخ مشاهير العلماء والمحدثين : روى عن أئمة كثيرين كابن عيينة ووكيع ويزيد بن هارون ٠٠٠، وروى وحدث عنه أئمة الحديث وأقطاب العلم كالبخاري والترمذي وأبي داود وابن ماجه والنسائي وابن خزيمة ٠٠٠ ونهل منه الإمام الطبري الكثير ٠

وهو عالم فذ وإمام جهبذ ، مشهود له بالفضل والعلم الغزير والاستيثاق ، وصاحب الإمام الشافعي وقرأ عليه ، قال ابن عبد البر يقال إنه لم يكن في وقته أفصح منه ، ولاأبصر باللغة ، ولذلك اختاروه لقراءة كتب الشافعي ، وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ما بلغني عنه إلا الخير ، وقال الإمام النسائي : هو ثقة ، وقال الإمام أبو حاتم : هو صدوق ، وذكره الإمام ابن حبان : في الثقات ٠وتوفي هذا الشيخ الفاضل في عام (٢٦٠هـ) ستين ومئتين٠ (١)

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ ص٥٢٥ وسير أعلام النبلاء ج١٢ ص٤٩٧-٥٠١ وكلاهما للحافظ الذهبي ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٢ص٢٧٥ وخلاصة =

ب - العلامة محمد بن عبد الله بن عبد الحكم :

روى عن أبيه وعن ابن وهب وأنس بن عياض والشافعي وغيرهم ، وكان هذا الشيخ متواضعا عالما متبحرا ، وبخاصة في فقه الإمامين : مالك والشافعي حتى كان فقيه أهل مصر ، قال عنه الحافظ الذهبي : صدوق واحتج به الإمام النسائي وقال عنه : ثقة وقال ابن أبي حاتم · صدوق ثقة ، وقال ابن خزيمة : ما رأيت في فقهاء الإسلام أعرف بأقاويل الصحابة والتابعين منه ، وكان أعلم من رأيت بمذهب مالك ، أما الإسناد فلم يكن يحفظه ·

واعترف من معين هذا الشيخ كثيرون منهم الإمام أبو جعفر الطبري ، وتوفي هذا الشيخ في عام (٢٦٨هـ) ثمانية وستين ومئتين·(١)

ج - العلامة أبو موسى محمد بن المثنى بن عبيد بن قيس العنزي - بفتح العين والنون - البصري ، ويوصف بالزمن ·

تلقى العلم على أكابر العلماء ، والأئمة كغندر وسفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان وحفص بن غياث ، وكان نشيطا في تحصيل العلم ذاهمة قوية حتى انه كان ينافس في تحصيله بندارا - محمد ابن بشار - ، وكانا كفرسي رهان ·

= تذهيب تهذيب الكمال للخزرجي ص٨٠ ·

(١) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ج٣ص٦١١ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٩ ص٢٢٢ - ٢٢٣ ، والخلاصة للخزرجي ص٣٤٥ ·

وممن روى وتلقى العلم عنه الإمام البخارى ومسلم وابن ماجه وأبو جعفر الطبرى وغيرهم ٠

وكان هذا الشيخ حافظا ثقة ثبتا ، قال عنه أبو حاتم : صالح الحديث صدوق ، وقال يحى بن معين : ثقة ، وقال الذهلى : حجة وقال ابن خراش : كان من الأثبات ، وقال الخطيب البغدادى : كان ثقة ثبتا احتج عامة الأئمة بحديثه ، وذكره ابن حبان فى الثقات وتوفى هذا الامام سنة (٢٥٢هـ) اثنتين وخمسين ومئتين ٠ (١)

وللامام الطبرى شيوخ عمالقة آخرون منهم : داود بن على الأصبهانى الظاهرى ، وأبو سهل بشر بن معاذ العقدى البصرى الضرير ، وأبو محمد الحارث بن أبى أسامة داهر التميمى ، والحسن بن يحيى بن الجعد ، وأبو محمد سفيان بن وكيع بن الجراح الرؤاس ، وأبو محمد القاسم بن الحسن الهمدانى البغدادى ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الأعلى الصنفانى ويونس بن عبد الأعلى ابن موسى ، وأبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشهير بثعلب إمام الكوفيين فى النحو واللغة والشعر المتوفى فى سنة (٢٩١هـ) ، احدى وتسعين ومئتين ، وغيرهم كثير ، أخذ عنهم اللغة بفروعها

---

(١) انظر ميزان الاعتدال للذهبى ج٤ص٢٤ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٩ ص ٣٧٧- ٣٧٨ ، والخلاصة للخزرجى ص٣٥٧ ٠

والأدب والفقه والحديث والتفسير والقراءات والتاريخ وغيرها من العلوم النافعة الشافية .

((ومن تلاميذه))

***

أ-القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف الشجري :

ولد ببغداد في سنة(٢٦٠هـ) ستين ومئتين ، ونشأ محبا للعلم شغوفا به ، فتتلمذ على شيخه أبي جعفر ، وحرص على العلم وملازمة شيخه ، وظل يواصل الدرس والجمع الى أن صار من أوعية العلم وإماما كبيرا في الفقه والقراءات والتفسير والأدب والتاريخ ذا مؤلفات متنوعة ، وتولى قضاء الكوفة ، وهذا العالم قال عنه الحافظ الذهبي : لينه الدارقطني وقال : كان متساهلا، ومشاه غيره وكان من أوعية العلم ، كان يعتمد على حفظه فيهم .(١)

ب-العلامة أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي طالب بن محمد بن أحمد ابن الجهم البغدادي : التقى بالإمام الطبري وجلس بين يديه تلميذا ، وتلقى عنه الحديث وغيره من العلوم ، إلى أن صار عالما مشهورا وإماما كبيرا وفقيها ومقرئا وكاتبا ، ثم توفي في سنة

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٤ ص٣٥٧ ، وميزان الاعتدال للذهبي ج١ ص١٢٩ .

(٣٧٩هـ) تسع وسبعين وثلاثمائة .[1]

جـ - الحافظ الثبت الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني المعمر : ولد بطبرية بالشام ، ورغب في العلم ، وحصل منه الكثير ، ثم رحل في طلبه إلى بلاد كثيرة وتلقاه عن كثير من الشيوخ الأجلاء ، وكان منهم الإمام أبو جعفر الطبري ، إلى أن صار إماما حافظا محدثا ذا مؤلفات نافعة متنوعة ، بل من كبار المحدثين وفطاحلهم ، واشتهر بمعاجمه الثلاثة في السنة : الكبير والأوسط والصغير ، وكان ثقة صدوقا فاضلا ، واسع الحفظ ، قوي الذاكرة ، بصيرا بالعلل والرجال والأبواب ، ثم توفي هذا الإمام في سنة (٣٦٠هـ) ستين وثلاثمائة .[2]

هذا وللإمام أبي جعفر الطبري تلاميذ كثيرون لايحصون عددا منهم : أبو اسحق إبراهيم بن حبيب الطبري ، وأبو الحسن أحمد ابن يحيى بن علم الدين المنجم المتكلم ، وأبو بكر بن مجاهد ، وأبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الثلج الكاتب ، وعبد العزيز

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٤ ص٣١٥ - ٣١٦ .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص٤٠٧ ، وميزان الأعتدال للذهبي ج٢ ص١٩٥ ، وطبقات المفسرين للداودي ج١ ص١٩٨ - ٢٠١ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٣ ص٣٠ .

ابن محمد الطبري ، وعلي بن عبد العزيز بن محمد الدولابي ، وأبو الفرج المعافي بن زكريا النهرواني ، وأبو الفرج بن أبي العباس الأصفهاني ... وغيرهم كثير ، ولهم مؤلفات ، ولبعضهم تعليقات على بعض كتب شيخهم ، رحمهم الله جميعا وسائر العلماء في كافة الأزمنة برحمته الواسعة ، ورحمنا معهم بفضله ومنّه .

((نبوغه ومؤلفاته))

***

ولما كان أبو جعفر الطبري إماما غزير العلم ، واسع الثقافة ذا دراية وتبحر في التفسير وعلومه ، والحديث وعلومه ، والنحو وعلوم اللغة ، والفقه وأصوله ، والتاريخ والسير ، وغيرها من ألوان العلم وفنون المعرفة ، كانت كتبه وتراثه الذي تركه لمن بعده متنوع التخصصات ، متعدد الجوانب ، مختلف الفنون ، وخلف مؤلفات كثيرة تفوق الحصر حتى إن بعض المؤرخين والمترجمين له قال : لو قسمت أوراق مؤلفاته على أيام عمره بعد بلوغه الحلم لكان نصيب كل يوم أربع عشرة ورقة .(١)

ومن كتبه وأبحاثه ما هو مجلد ، وما هو مجلدات ، وما هو ورقات وكلها تشهد بغزارة علمه ، وسعة أفقه ، وثاقب ذهنه ، وصفاء فكره

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ص٧١١ وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ج٢ ص١٠٧ .

واستقلال رأيه ، وشدة شغفه بالعلم وأهله ، واستحواذه عليه ، كما تشهد هي رحلاته بقوة صحته وعزيمته ، وسلامة بنيته ، وبركة وقته ·

ومن كتبه ما هو موجود ، وما هو مفقود ، ومن الموجود ما هو مطبوع ، وما هو مخطوط ، والى القارئ الكريم باقة من كتبه على وفق ترتيب الحروف ·

١- **آداب المناسك** : وهو كتاب تكلم فيه عن مناسك الحج وما يطلب من الحاج عمله والدعاء به من وقت خروجه الى الحج الى انتهائه منه ·(١)

٢- **آداب النفوس** : وهو كتاب تحدث فيه عن محاسن الأخلاق ، وما ينبغي أن تكون عليه جوارح الانسان وأعضاؤه من وظائف وأعمال مستدلا بالروايات والآثار ، وأقوال بعض الصوفية الكبار ، وهو كتاب كبير مات ولم يتمه ، قال ياقوت : عمل منه أربعة أجزاء ولم يخرجها الى الناس في الإملاء ·(٢)

٣- **بسيط القول في أحكام شرائع الاسلام** :

وهو كتاب ذكر فيه الأحكام الشرعية ، وبدأه ببيان فضل العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء ، ومراتبهم في مختلف الأمصار

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ج٨ ص٣٥٢ ·

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٧٧ ·

الإسلامية فى عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم ، كما تكلم عن الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والشهادات ، والدعاوى والبينات ، وآداب القضاة وما يتحتم أن يكونوا عليه من آداب وأخلاق وعدل وحسن سمت وزهد وورع ، وغير ذلك من كتب الفقه وأبوابه ، ومات - رحمه الله - ولم يتمه .

٤ - **البصير فى معالم الدين** : وهى رسالة كتبها فى نحو ثلاثين ورقة إلى أهل بلده ومسقط رأسه طبرستان ، تحدث فيها عن الاسم والمسمى ، وأزال ما عم فيه من خلاف ولبس حولهما ، كما تكلم عن البدع وأهلها وبين الحق المدعوم بالدليل ، وتسمى هذه الرسالة فى كتاب طبقات الشافعية لابن السبكى ، والوافى بالوفيات للصفدى : التبصير فى أصول الدين (١) .

٥ - **تاريخ الرسل والملوك** : ويسميه بعض المؤرخين : تاريخ الأمم والملوك : وهو كتاب كبير فى التاريخ ، أكمل به ما قام المؤرخون قبله ، ومهد السبيل لمن جاء بعده منهم ، انتهى من تصنيفه عام (٣٠٢هـ) ثلاثة وثلاثمائة ، وكتبه مرتبا على ترتيب السنين والأحداث معتمدا فيه على الروايات بأسانيدها ، وتكلم فيه عن بدء الخليقة وقصص الأنبياء مع أقوامهم ، وأرخ لأمة الفرس

---

(١) طبقات الشافعية لابن السبكى ج٣ ص١٢١ والوافى بالوفيات للصفدى ج٢ ص٢٨٤ .

والروم والعرب واليهود : وتناول فيه تاريخ الإسلام والمسلمين منذ حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبعثته الى أحداث آخر عام (٣٠٢هـ) اثنين وثلاثمائة ، فالكتاب يمكن تقسيمه إلى قسمين : الأول منذ بدء الخليقة الى ظهور الاسلام والثاني منذ ظهور الاسلام إلى أحداث آخر عام (٣٠٢هـ) .

وطبع الكتاب عدة مرات فى مجلدات فى مختلف بلدان العالم ، وترجم إلى عدة لغات كالفارسية والفرنسية والتركية ، ولقيمته وكبر حجمه اختصره بعض المؤرخين كأبى الحسين الشمشاطى ومحمد بن سليمان الهاشمى .

٦ - تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار :

وهو كتاب عظيم ألفه على ترتيب مسانيد الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ومات قبل اتمامه ، وهو من أجل كتبه وأنفسها . نهج فيه نهجا فريدا لم يسبق اليه ، وأثنى عليه أفاضل العلماء وأماجدهم ، ابتدأه بما رواه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه مما صح عنده سنده ، وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه ، وعلى ما فيه من الفقه والسنن ، وبيان اللفظ الغريب والمعنى ، وغير ذلك مما يتعلق به ، ثم يذكر رأيه ويدلل عليه .

قال أبو بكر بن كامل أحد تلاميذه : لم أر بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء منه ، لأني أروض نفسي في عمل مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حديث منه نظير ما عمله أبو جعفر فما أحسن عمله وما يستوي لي أهـ ٠

وكان أبو جعفر نفسه يوصي تلاميذه أن يداوموا على قراءة كتابيه : " بسيط القول ٠٠٠ " وتهذيب الآثار ٠٠٠" وينشطوا في قراءتهما ويشتغلوا بهما أكثر من بقية كتبه ٠ (١)

واندثر معظم ما كتبه أبو جعفر في هذا الكتاب الجليل القدر ولم يوجد منه إلا أربعة أجزاء طبعت بمطبعة المدني بالقاهرة بتحقيق وتخريج الشيخ محمود أحمد شاكر في عام (١٤٠٢هـ ١٩٨٢م)٠

٧ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن :

وهو كتاب كبير كتبه في تفسير القرآن الكريم ، واستوعب فيه تفسير القرآن كله ، وله فيه منهجه العظيم الفريد كما سأبين إن شاء الله تعالى ، ومنه العون والسداد ، وبه الهداية والرشاد ٠

٨ ـ الجامع في القراءات : وهو كتاب جليل القدر كبير الحجم يقع في (١٨) ثمانية عشر مجلداً ، تكلم فيه عن القراءات أصولا وفرشا ، وجمع فيه كثيراً منها ، ورآه واستفاد منه كثير من

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت جـ١٨ ص٧٥ ـ ٧٦ ٠

العلماء وأهل القراءات كالعلامة شمس الدين ابن الجزرى واختار أبو جعفر من القراءات قراءة لم يخرج بها عن المشهور والمقبول من القراءات ٠

٩ - حديث الطير : وهو كتابه صنفه أبو جعفر واطلع عليه كثير من العلماء ، قال الحافظ ابن كثير : رأيت له كتابا جمع فيه حديث الطير أهـ ٠ (١)

١٠ - حديث غديرخم : (٢) وهو كتاب تكلم فيه عن فضائل الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه ورضى عنه - وجمع طرق الحديث المشهور والمعروف بحديث غديرخم ٠

والحديث رواه ابن الأثير الجزرى بسنده عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى قال : شهدت عليا فى الرحبة يناشد الناس : أنشد الله من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم : "من كنت مولاه فعلى مولاه " لما قام ، قال عبد الرحمن : فقام اثنا عشر بدريا كأنى أنظر إلى أحدهم عليه سراويل ، فقالوا : نشهد

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص١٤٧ ٠

(٢) غديرخم : موضع بالجحفة بين مكة والمدينة وهو أقرب الى المدينة به غيضة فيها غدير ماء : انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثيرالجزرى ج٢ ص٨١ والقاموس المحيط للفيروزابادى ج٤ ص١٠٨ ٠

أنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجي أمهاتهم ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، فقال : " من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه " .

قال ابن الأثير وقد روى مثل هذا عن البراء بن عازب ، وزاد : فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا ابن أبي طالب ، أصبحت اليوم ولي كل مؤمن (١) .

وروى الترمذي جزءاً منه بسنده عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم وقال عنه : هذا حديث حسن غريب ، وروى شعبة هذا الحديث عن ميمون أبي عبد الله عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، وأبو سريحة هو حذيفة بن أسيد صاحب النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

ورواه ابن ماجه بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، وقال محقق الكتاب : في الزوائد : إسناده ضعيف ، لضعف علي

---

(١) انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ج٤ ، ص١٠٨ - ١٠٩ ترجمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) سنن الترمذي أبواب المناقب : مناقب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ج٥ ص٢٩٧ ، والشك الموجود في السند من أحد الرواة وهو شعبة .

ابن زيد بن جدعان أهـ .

ورواه بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه .(١)

ورواه الامام أحمد بسنده عن زاذان بن عمر وغيره .(٢)

ومما دفع الطبري الى كتابته أنه بلغه تكذيب بعض الشيوخ بهذا الخبر غدير خم بدعوى أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه كان باليمن في الوقت الذي كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بغدير خم .

قال الحافظ ابن كثير : رأيت له كتابا جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين .(٣)

١١- اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الاسلام :

وهو كتاب جمع فيه أقوال الفقهاء النبهاء كمالك وأبي حنيفة

---

(١) انظر سنن ابن ماجه ، المقدمة ، فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ص٤٣ - ٤٥ .

(٢) انظر المسند للإمام أحمد ج١/ ٨٤/١١٨/١١٩/١٥٢/٣٣١ وج ٤/ ٢٨١، ٣٦٨/٣٧٠/٣٧٢ وج٥/٣٤٧/ ٣٦٦/٤١٩ ،وآثرت ذكر رواية ابن الأثير على الرغم من تأخره في الزمن لروايته القصة بملابساتها .

(٣) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٨٤ والبداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص١٤٧ .

وأبي يوسف ومحمد بن الحسن والثوري والأوزاعي والشافعي وهدفه من تدوينه أن يستعين به ويسعفه ويتذكر ما يحتاج اليه عند المناظرة والمقارنة ٠

١٢- الخفيف في الفقه: وهو كتاب اختصره من كتابه (اللطيف) تلبية لرغبة بعض تلاميذه وأحبابه كالوزير أبي أحمد العباس بن الحسن العزيزي ذكر فيه رأيه ومذهبه في بعض الأحكام والمسائل الفقهية مرجحا ما اختاره وما ذهب اليه ، وهو من أحاسن كتبه سهل التناول ، قريب على الناظر فيه ، صالح لتذكرة العالم والمبتدىء والمتعلم ، ويقع في نحو (٤٠٠) أربعمائة ورقة ٠

١٣- ذيل المذيل : وهو كتاب في التاريخ يقع في نحو ألف ورقة ، ترجم فيه لأكابر الصحابة وأفاضل التابعين ومن بعدهم الى شيوخه الذين سمع منهم ، ودافع عن كل من اتهم منهم بشيء وهو منه بريء كالحسن البصري وقتادة بن دعامة وعكرمة رحمهم الله تعالى ، وفي أواخره أبواب تتعلق بالحديث وبعض المحدثين ، وهو من أحاسن الكتب وأفاضلها يستفيد منه طلاب الحديث والتاريخ ، وأملاه على تلاميذه بعد عام (٣٠٠هـ) ثلاثمائة ٠ (١)

١٤- الرسالة : وهو كتاب ضمنه مسائل في أصول الفقه ومباحثه

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٧٠ -٧١ ٠

وسماه باسم كتاب الرسالة للامام الشافعي الذي صنفه في أصول الفقه ٠

١٥- **صريح السنة** : وهي رسالة بين فيها أن العقيدة الصحيحة هي عقيدة أهل السنة والجماعة ، وضمنها مذهبه العقدي الذي يدين الله عليه ، وهو مذهب لم يخرج عما كان عليه الصحابة والتابعون وسائر السلف الصالح ، ورد على من خالف هذه العقيدة وحاد عن ذلك الدرب القويم ٠

١٦- **طرق الحديث** : وهوكتاب يقع في مجلدات ، ذكر فيه مجموعة من الأحاديث ، وجمع لكل حديث طرقه وتكلم عنها ، واطلع على هذا الكتاب كثير من العلماء السابقين كالحافظ شمس الدين الذهبي ، وقد اندهش وعجب من عظمته ودقته وتحقيقاته (١) ٠

١٧- **الفصل بين القراءات** :وهو كتاب ذكر فيه اختلاف القراء في حروف القرآن واختلافهم في بعض القراءات ، ووجه كل قراءة لغة ومعنى توجيها رشيدا ، وترجم لمشاهير قراء الأمصار الإسلامية ٠

١٨- **الفضائل** : وهو كتاب تحدث فيه عن فضائل الخلفاء

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي ص٧١٢ ٠

الراشدين الأربعة ومناقبهم رضى الله تعالى عنهم ، وعما ورد في شأن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من حديث غدير خم واحتج لتصحيحه ، ورد على من أنكر صحته ، أو انتقص أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفارق الدنيا ولم يتمه .

١٩ - لطيف القول في أحكام شرائع الاسلام :

وهو كتاب في الفقه ضمنه ثلاثة وثمانين بابا فقهيا ، وذكر فيه أوجه الاختلاف بين الفقهاء ، كما تحدث عن الإجماع وغيره مبينا أهمية الإجماع .

وقصد بتسميته باللطيف دقة معانيه وقوة مراميه وعمق أفكاره ، ولم يقصد بالتسمية صغر حجمه وخفة حمله وقلة وزنه .

قال عنه ياقوت : هو مجموع مذهبه الذي يعول عليه جميع أصحابه ، وهو من أنفس كتبه وكتب الفقهاء ، وأفضل أمهات المذاهب وأسدها تصنيفا ، وكان أبو بكر بن زاميك يقول: ما عمل كتاب في مذهب أجود منه (١) .

وطبع هذا الكتاب بمطبعة الترقي والموسوعات في عام ١٩٠٢م وطبع في ليدن عام ١٩٣٣م .

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٧٣ وطبقات الشافعية لابن السبكي ج٣ ص١٢٧ .

٢٠ - **المسند المجرد** : وهو كتاب فى الحديث أطلع عليه كثير من المحدثين السابقين وأفادوا منه كثيرا ، وانتقل الى جوار ربه قبل إتمامه ٠

٢١ - **الوقف** : وهو كتاب ألفه بطلب من الخليفة المكتفى بالله ، ذكر فيه ما اجتمعت عليه أقوال العلماء وسلم من الخلاف فى هذا الموضوع ، ولما ألفه وأملاه على طلابه ورآه الخليفة واطلع عليه أعجب به وأمر لأبى جعفر بجائزة سنية ، فأبى الامام أبو جعفر وردها فى نبل ورضا وعزة ٠ (١)

....

إلى غير ذلك من المؤلفات النفيسة الثمينة التى دونها فى مختلف التخصصات ، وبعضها موجود ، وكثير منها مفقود ، ضامه الزمن فضاع فى زحمة الحياة ومعتركها وما فيها من إهمال وغفلة ٠

وبعض مصنفاته يقع فى مجلدات ، وتعد أوراقه بالمئات بل بالآلاف ، وبعضها يعد بعشرات الأوراق ٠

وقد استفاد منها طوائف من العلماء المعاصرين له واللاحقين الذين جاءوا بعده ، ونقلوا منها بعض النصوص فى مؤلفاتهم إدراكا وتقديرا لقيمتها العلمية العالية ، والكتب

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبى ج٢ ص٧١١ ٠

التى ضامها الزمن وضاعت عرف بأسمائها وبموضوعاتها بعض العلماء والمؤرخين ، وذكروا فى بطون كتبهم وثنايا صفحاتها أقوالا مقتضبة موجزة عنها كابن النديم فى الفهرست ، وابن عساكر فى تاريخه ، والخطيب البغدادى فى تاريخه ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، والحافظ الذهبى فى كتابه : تذكرة الحفاظ ، والسيوطى فى كتابه طبقات الحفاظ ....

وربما يكون بعض تلك الكتب موجودا ومتناثرا ومطمورا فى دهاليز بعض المكتبات الموجودة فى الديار والأمصار الإسلامية وغيرها ، مغمورا فى الركام الهائل من المخطوطات ، ويكشف النقاب ، ويزيل عنها التراب مستقبل الأيام ومرور الأعوام ، وهو أمل نرجو الله أن يكون حقيقة وواقعا لتتم الاستفادة منها والانتفاع بها ، والله تعالى هو الهادى إلى سواء السبيل .

((أسلوبه))

***

وان القارئ فى مؤلفات الإمام أبى جعفر الموجودة - على تقدم عهده ، وكثرة كتبه ، وتنوع فنونها - أو فى نصوص منقولة عنه موجودة فى كتب أخرى لغيره من العلماء يبصر فيما كتبه وكان له فيه رأى أو تعليق وتعقيب على نص رواه ونقله : ترتيب أفكاره ، وقوة أسلوبه ومتانته ، وجزالته ورصانته ، وخلوه من التعقيد والالتواء ، وسهولة

فهمه ، ويسر تذوقه ، ووضوح رقته ، ويشعر بأنه رفيع سهل عذب سلس ينساب انسيابا .

ويبدو أنه كان - رحمه الله تعالى - أثناء تأليفه وتصنيفه يطلق العنان لقلمه ويترك نفسه على سجيتها ، ولا يتكلف التعبير والتنميق .

وهذا هو واجب العلماء والمؤلفين : واجب العالم اذا ما كتب أن يكتب كتابة سهلة ميسرة ، واضحة الأسلوب ، بينة الأفكار ، مترابطة المعاني ، منسجمة المباني ، ليتم الانتفاع بما يكتب .

ولا ينبغي أن يميل الى التقعر في التعبير ، ويهوى التكلف في الألفاظ وذكر غرائب اللغة ومعمياتها والسجع المقيت ، لأنه لا يؤلف لنفسه ، ولا لتدفن كتبه أو تبغض ، وانما يؤلف لغيره ولأزمنة لاحقة الى ماشاء الله ، ولأنه إذا سلك مسلك التكلف والتعبير المعقد كان مهتما بالألفاظ أكثر من اهتمامه بالمعاني ، ويتبع ذلك صعوبة الفهم على القارئ ، وعسر التذوق ، وغموض المعنى وخفاؤه بل طمسه ، ويصاب القارئ بسأم وملل وقلة انتفاع ، وينصرف عما يقرأ ، فتكون النتيجة عكس المقصود ، وهو ما نأى عنه واحترز منه الإمام أبو جعفر الطبري .

وكان إلى جانب رصانة أسلوبه ومتانته ، ووضوحه وسهولته ، شاعرا

ممتازا ، وله شعر رائع رائق ، بديع رفيع ، حتى ذكره القفطي في كتاب ((المحمدين من الشعراء)) ، ووصف شعره بأنه شعر فوق شعر العلماء [(١)] وأورد لـه قـولـه :

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي ** وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي ** ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت ببذل وجهي ** لكنت الى الغنى سهل الطريق

وقـولـه :

خلقان لا أرضى طريقهما ** بطر الغنى ومذلة الفقر

فاذا غنيتفلاتكن بطـرا ** واذا اغنقرت فته على الدهر

وهذه الأبيات وغيرها من الأبيات التي قالها تدل على قرضه للشعر وخبرته به ، وتدل على عصاميته وزهده وتورعه وخلقه وطول باعه في ذلك الميدان ، ومن يقرأ في كتابه - تاريخ الأمم والملوك - يجده قد انتقى من عيون الشعر وروائع الخطب وبدائع الرسائل وفرائد الوصايا ما يشهد لذلك ويؤكده ٠

عفا الله تعالى عن الإمام الطبري ، وغفر له ، وجعله في عليين ٠

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب ج٢ ص١٦٥ ومعجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٤٣ ووفيات الأعيان لابن خلكان ج٤ ص١٩٢ والمحمدون من الشعراء للقفطي ٠

((صفاته الخلقية والخلقية))

***

يذكر بعض المؤرخين والمترجمين للإمام الطبري نقلا عن بعض تلاميذه ومحبيه من معاصريه نعوتا وأوصافا خلقية وخلقية له مفادها أنه :

كان طويل المقامة ، نحيف الجسم ، قوي البنية ، أسمر اللون يميل لونه الى الأدمة ، واسع العينيين ، كث اللحية طويلها ، قليل الشيب ، حتى أنه توفي ولم يشتعل رأسه ولاشعر لحيته شيبا ، بل كان سواد الشعر غالبا على بياضه ، فصيح اللسان (١) .

وكان متدينا، ورعا نزيها ، عفيفا ، متواضعا ، جم التواضع، مرحا مداعبا في أدب ووقار ورزان ، سليم الفطرة ، عزيز النفس ، بسيطا بعيدا عن التكلف في الملبس والمطعم ، كان يأكل ويلبس ماتشتهيه نفسه في غير إسراف مع بعد عن الكلفة ، ويتخير الأطعمة المريحة له ويتوقى الأطعمة المتعبة ، وكان يتعيش من مزرعة صغيرة تركها له والده الورع التقي ، وفي خلال تعلمه ورحلاته العلمية كان أبوه يكفيه مئونة العيش ومعاناة الرزق ، فكان يرسل إليه نفقته ومايلزمه حيث حل وأقام ، وعاش عزوفا عن المال وحبه والاستشراف اليه مكتفيا بما يغنيه ويسد حاجته .

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٤٠ وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص١١٤ .

واذا ما قبل هدية من أحد محبيه رد بأحسن منها ، أما هدايا الحكام والأمراء فلم يقبض شيئا منها قط زهدا وورعا وترفعا وخوفا منها لأن قبول الهدية من ذلك الطريق كما يرى أقوى أشراك الشيطان وأحابيله ، ويتعلل الى جانب ذلك بأنه لاقبل له برد مثلها أو المجازاة عليها .

أرسل اليه الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن العزيزي ألف دينار ، فردها عليه ولم يقبلها ، فقيل له : تصدق بها ، فلم يقبل وقال :أنتم أولى بأموالكم وأعرف بمن تتصدقون عليه (١) .

وعرض عليه القضاء وغيره من المناصب والوظائف فأبى وآثر أن يعيش زاهدا فيها زهده فى المال ، ورضى فى غبطة أن يحيا بين ظهرانى تلاميذه وقاصديه معلما ومرشدا ، صابرا محتسبا على تعليمه وعلى ما يلقاه من متاعب ومصاعب ومنغصات من أعدائه ومناوئيه ، وخصومه وشانئيه ، بسبب شهرته العلمية الفائقة ، وآرائه المستقيمة القويمة ، ودفاعه عن أهل السنة والجماعة ، والرد على غيرهم المخالفين لهم ، إذ أن المنطقة التى ولد بها وبعض المواطن التى حل فيها وألقى عصا الترحال كان يوجد فيها التشيع المفرط لعلى ابن أبى طالب وأولاده رضى الله عنهم ورحمهم ، كما كانت توجد آراء

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ج٨ ص٣٤٨ .

مجانبة للحق والصواب لبعض الفرق والمذاهب العقدية والفقهية ٠

ولا غرو فى أن هذه الصفات الخلْقية من العوامل المساعدة له على الصبر والمثابرة فى طلب العلم وتحصيله ، ونشره على طلابه ، وخطه فى كتبه ٠

وأن الصفات الخلُقية دلت على عظم تدينه ووقاره ، ودمث خلقه وطبعه ، وشفافية نفسه ، ورفعة قدره ، مما كان له صدى فخيم وانعكاس كريم ، وأثر عظيم ، على تلاميذه ومحبيه ، إذ كان أسوة حسنة لهم فتأسوا به فى سلوكهم ٠

وأن حكاية صفاته الخلْقية والخلُقية تعطينا تصورا لهذه الشخصية الفذة ، المجيدة ، الفريدة ٠

((وفـــــاتـــــه))

***

وظل الإمام أبو جعفر مقيما ببغداد ، بداره التى بناها لنفسه برحبة يعقوب ، منظما نفسه ، موزعا وقته بين العبادة والقراءة والتصنيف والإملاء ، وعاش شريف النفس ، رضى القلب ، مرموق المكانة رفيع المنزلة ، جليلا مهيبا ، كعبة القاصدين ، ومثابة المتفقهين ، ومنارة المسترشدين ، ومنهلا عذبا ضافيا صافيا للواردين والمتعلمين ، إلى أن وافته منيته ، وعاجله قدره المحتوم ، فتوفى فى

عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شهر شوال من سنة (٣١٠هـ) عشر وثلاثمائة في عهد الخليفة المقتدر بالله أحد الخلفاء العباسيين وصلى عليه خلائق ، ثم شيع جثمانه الطاهر إلى مثواه الأخير في الصباح بعد صلاة الغداة ، ودفن في داره ، ورثاه كثير من العلماء والأدباء كابن دريد وأبي سعيد بن الأعرابي ، كما رثاه وبكاه إخوانه ومحبوه ، وتلاميذه ومريدوه ٠

تغمده الله الكريم المنان البر الرحيم بواسع رحمته ، وأسكنه فسيح جنته ٠

((التعـــريـــف بكتـــابـــه))

فـــى

** التفسير وبمنهجـــه فيـــه **

*****

(التعريف بكتابه في التفسير)

***

من المعلوم أن تدوين العلوم ظهر في مستهل القرن الثاني الهجري ، وبدأ المدونون بالحديث الشريف ، وكان التفسير داخلا في الحديث وبابا منه ، الى أن جاء عهد تابعي التابعين فاستقل التفسير عن الحديث ، وألفت تفاسير عديدة كتفسير شعبة بن الحجاج المتوفى سنة (١٦٠هـ) ستين ومائة ، وسفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١هـ) احدى وستين ومائة ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة (١٩٦هـ) ست وتسعين ومائة ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة (١٩٨هـ) ثمان وتسعين ومائة ، ويحيى بن سلام التميمي البصري المتوفى سنة (٢٠٠هـ) مئتين ، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني اليمني المتوفى سنة (٢١١هـ) احدى عشرة ومئتين ، وأبي بكر بن أبي شيبة المتوفى في عام (٢٣٥هـ) خمسة وثلاثين ومئتين ، واسحق بن ابراهيم بن راهويه المتوفى في عام (٢٣٨هـ) ثمانية وثلاثين ومئتين ، وعبد بن حميد المتوفى في عام (٢٤٩هـ) تسعة وأربعين ومئتين ، ... ، وغيرهم .... .

وكلها تفاسير بالمرويات الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والصحابة والتابعين وتابعيهم رضي الله عنهم ورحمهم ، وفي بعضها كتفسير يحى بن سلام ، وبقي بن مخلد الأندلسي القرطبي المتوفى سنة (٢٧٦هـ) ست وسبعين ومئتين : تعليقات على بعض الآثار .

واختيار لبعض الأقوال لكنها قليلة محدودة معدودة ، وبعض هـــذه الكتب لم يتم تصنيفه ولم يستوعب تفسير آيات القرآن الكريم كلهـا كتفسير سفيان الثورى رحمه اللـه تعالـى ....

الى أن جاء العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فكتب تفسيرا بعنوان : " جامع البيان عن تأويل آى القرآن " .

ويدل هذا العنوان الذى اختاره له على أن هذا التفسير جاء بعد تفاسير سابقة استفاد منها الطبرى ، كما يدل على أنه كتاب كبير واسع جـامـع .

وهـذه التسمية مطابقة للمسمى :

فكتابه - رحمه اللـه - كبير الحجم ، غزير المعلومات المتنوعة ، فريد فى بابه وميدانه ، ولعله قصد أن يجمع كل ما يحتاج اليه أهل العلم مما يتعلق بتفسير القرآن الحكيم ، وقد كان يود أن يضخم كتابه ليستوعب من المعلومات أكثر مما استوعبه - وكذلك كتابه "تاريخ الرسل والملوك " - لكنه وجد ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزيمة عند تلاميذه .

روى أنه قال لأصحابه وتلاميذه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تغنى الأعمار فيه قبل تمامه ، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة .

ثم قال لهم لما فرغ منه وعزم على كتابة كتاب في التاريخ :

هل تنشطون لتاريخ العالم الى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟

فذكر نحوا مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : انا لله ، ماتت الهمم ، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير (١) .

وكان الإمام ابن جرير قبل إقدامه على تأليف كتابه في التفسير خائفا من نزول ذلك الميدان متهيبا مترددا لإحساسه بعظمته وضخامته ، وجلاله وفخامته ، فاستخار الله سبحانه وسأله الإعانة على تصنيف كتاب في التفسير، وظل على هذه الحال من التردد والخوف

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٢ص١٦٣ ، وطبقات الشافعية لتاج الدين السبكي ج٣ص١٢٣ ، وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص١١٣ .

وهذه الرواية تفيد - كما يفيد غيرها - أنه ألف كتابه في التفسير قبل تأليفه كتابه في التاريخ .

ونجده في تاريخه يحيل القارئ على تفسيره في بعض المسائل والقضايا ، ففي قصة آدم عليه السلام والقول في خلقه يقول في كتابه (تاريخ الأمم والملوك) :

وقيل أقوال في ذلك قد حكينا منها جملا في كتابنا المسمى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن) فكرهنا إطالة الكتاب بذكر ذلك في هذا الموضوع أهـ تاريخ الطبري ج١ ص٨٩ .

واللجوء الى الله ثلاث سنين ، ثم شرح الله صدره لما نواه وأعانه وهداه ووفقه حتى أتمه (١) ٠

وعقب انتهائه من تأليفه أملاه على تلاميذه في بغداد ، واستغرق إملاؤه عليهم بضع سنوات - من سنة (٢٨٣هـ) ثلاث وثمانية ومئتين ، الى سنة (٢٩٠هـ) تسعين ومئتين - ثم قرئ تفسيره كله عليه في عام (٣٠٦هـ) ستة وثلاثمائة ٠

واستفاد منه كثيرا تلاميذه ومعاصروه ، واللاحقون من بعدهم من العلماء ، وتناقلته الأجيال ، واختصره جماعة من العلماء منهم أبو بكر بن الاخشيد (٢) ، وترجم الى اللغة الفارسية في القرن الرابع الهجري بأمر منصور بن يحيى الساماني (٣) ، وترجم كذلك الى اللغة التركية وغيرها (٤) ٠

---

(١) انظر طبقات المفسرين للداودي ج٢ص١١٢ ٠

(٢) واختصره في عصرنا الشيخ محمد علي الصابوني ، وهو عالم سوري معاصر له مؤلفات ، واختصر أيضا تفسير الحافظ ابن كثير ٠

(٣) كان أمير بلاد ماوراء النهر ، وكان مقر إمارته في بخارى ، وتولى الإمارة وتقلدها في عام (٣٥٠هـ) خمسين وثلاثمائة ، ثم توفي في عام (٣٦٦هـ) ستة وستين وثلاثمائة ٠

(٤) انظر الفهرست لابن النديم ص٣٢٧ ، وبروكلمان ج١ ص٢١٣-٢٤٩ ، الملحق ونشرت جريدة المدينة المنورة بتاريخ الأربعاء ١٤٠٤/٦/٢٦ هـ أن شابا فرنسيا يعمل بجامعة باريس اسمه بيير جوده أسلم وسمى نفسه فاروقا ويقوم بتلخيص تفسير أبي جعفر الطبري وترجمته الى اللغة الفرنسية ٠

وظل الكتاب الأصلي العربي منقولا متداولا متعدد النسخ الى أن جاءت عهود غاب فيها - بنسخه - عن الأعين حتى ظُنّ أنه فقد وإندثر كغيره من كتبه وكتب بعض الأئمة الآخرين، لكن الله الكريم بفضله ورحمته حفظه ، وهو (خير حافظا وهو أرحم الراحمين) ، وقدر له الظهور ودوام الانتفاع به فعثر على نسخة منه مخوطة فى حيازة أمير حائل ، الأمير : حمود بن عبد الرشيد ، أحد أمراء نجد ، فتم طبع الكتاب عليها منذ عهد قريب ، وكانت طبعة مفلجة سارية لأهل العلم ، ثم طبع الكتاب مرات ، وصار متداولا ، وأصبحت بأيدى العلماء والمسلمين فى التفسير دائرة معارف واسعة ثرية ، كثيرة الانتشار والتناول .

والكتاب يقع فى ثلاثين جزءا من الحجم والقطع الكبير - أى عدد أجزائه بعدد أجزاء القرآن المجيد - .

ويبلغ عدد صفحاته نحو (٧٧٦٣) ثلاث وستين وسبعمائة وسبعة آلاف صفحة دون عد ونظر للفهارس وغيرها .

وهو أقدم كتاب فى التفسير وصل الينا كاملا مستوعبا لتفسير آيات القرآن الكريم جميعها ، عظيما فى ميدانه ، فريدا فى منهجه ، فلم يسبق إليه ولم يلحق به .

وقام الأستاذ / محمود محمد شاكر ، بتحقيقه والتعليق عليه

ونشره في طبعة علمية محررة أنيقة بدار المعارف بالقاهرة ، وشاركه أخوه الكبير الشيخ / أحمد محمد شاكر ، بمراجعته وتخريج أحاديثه ، وطبعت منه أجزاء ولما مات الشيخ / أحمد وانتقل الى جوار ربه الكريم توقف العمل فيه ، ولم يكتمل تحقيقه وتخريج أحاديثه وطبعه ٠

وتوقف عملهما فيه بنهاية تفسير الطبري لقوله تعالى في سورة ابراهيم عليه السلام -٢٧- (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ٠

وما حققاه أخرجاه مطبوعا في (١٦) ستة عشر جزءا ٠

ونسأل الله وهو خير مسئول ، وأعظم مأمول : أن يقيض له من العلماء الأجلاء الأكفاء من يكمل طبعه محققا على نفس المنوال ويسير على ذات الدرب الذي سار عليه هذان العالمان الجبلان ، وأن يجزيهما وكل خادم للعلم والدين الجزاء الأوفى من الثواب والرضا والفضل العظيم ،وفي جنات النعيم ٠

(منهجه في تفسيره)

***

من يتصفح تفسير الإمام الطبري - جامع البيان عن آي القرآن ، ويبدأ القراءة فيه يجد الإمام الطبري صدره بمقدمة طويلة ، تعد رسالة مستقلة ، أشار في مستهلها الى منهجه في التفسير وغايته منه ، فكان

مما قالـه :

" ... اللهم فوفقنا لإصابة صواب القول ، فى محكمه ومتشابهه ، وحلاله وحرامه ، وعامه وخاصه ، ومجمله ومفسره ، وناسخه ومنسوخه ، وظاهره وباطنه ، وتأويل آيه ، وتفسير مشكله ، وألهمنا التمسك به ، والاعتصام بمحكمه ، والثبات على التسليم لمتشابهه ، وأوزعنا الشكر على ما أنعمت به علينا ، من حفظه والعلم بحدوده ١/٤

اعلموا عباد الله - رحمكم الله - أن أحق ماصرفت الى علمه العناية ، وبلغت فى معرفته الغاية ، ما كان لله فى العلم به رضا ، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى ، وأن أجْمع ذلك لباغيه كتاب الله الذى لاريب فيه ، وتنزيله الذى لامرية فيه ، الفائز بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه ، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ونحن فى شرح تأويله ، وبيان ما فيه من معانيه ، منشئون - ان شاء الله ذلك - كتابا مستوعبا لكل ما بالناس اليه الحاجة من علمه جامعا ، ومن سائر الكتب غيره فى ذلك كافيا ، ومخبرون فى كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه الأمة ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ، ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم ، وموضحو

الصحيح لدينا من ذلك ، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك ، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه . ...

وان أول ما نبدأ به من القيل في ذلك ، الإبانة عن الأسباب التي البداية بها أولى ، وتقديمها قبل ما عداها أحرى ، وذلك البيان عما في آي القرآن من المعاني ، التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعان رياضة العلوم العربية ، ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقية الطبيعية .(١)

ثم تكلم الإمام أبو جعفر الطبري في المقدمة عن أهمية التبحر في علوم اللغة العربية ليتسنى للمتبحر فهم أسلوب القرآن الكريم ،

ووضح عربية القرآن، وعربية كل لفظ فيه ، وأن ما فيه من ألفاظ غير عربية الأصل نقلت الى اللغة العربية ، وعربت وهذبت ولاكتها العرب بألسنتهم ، وتداولت على شفاههم .

وتكلم عن اعجاز القرآن الكريم ، وخصائص أسلوبه ، وبين أنه معجز لايعارض ولايبارى على طول الزمن وامتداد الدهر .

كما تكلم عن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم .

وتحدث عن أشهر المفسرين من الصحابة والتابعين ، وأشهر من لهم رأي محمود في التفسير من السابقين ، ومن لهم رأي مذموم فيه .

(١) انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ج١ص٤-٥ .

وبين أن فى القرآن العظيم أشياء استأثر الله تعالى بعلمها ومعرفة معناها وكنهها تفصيلا ، وأشياء فسرها الله لنا فى القرآن ، وبين معناها والمراد بها ، وأشياء فسرها ووضحها لنا رسوله الكريم - صلى الله تعالى عليه وسلم - بالوحى ، وليس لنا أن نقحم عقولنا فيما استأثر الله - عز وجل - بعلمه ، وليس لنا أن نرى رأيا مخالفا لما فسره الله لنا فى القرآن الكريم أو أخبرنا به رسوله الكريم - صلى الله تعالى عليه وسلم - ، وانما علينا القبول والإذعان والتسليم لأن الله سبحانه أعلم بمراده ، ورسوله أمين على وحيه ، ومختار من قبله ، وأن فى كثير من آيات القرآن الكريم مجالات أخرى كثيرة للنظر والتأمل والاستنباط واعمال العقول ، وهذا متاح للعلماء الذين تتوافر فيهم وسائل التفسير وتتضافر فيهم أدواته وعلومه وشروطه ٠

ثم أنتقل الامام أبو جعفر الى ذكر أشهر أسماء القرآن، وفسر كل اسم ، وبين معنى السورة ، ومعنى الآية ٠

وعنون الامام الطبرى فى مقدمته لهذه المسائل كلها ، واستشهد على ما قال بكثير من النصوص والآثار ٠

وتبلغ هذه المقدمة القيمة النفيسة التى صدر بها تفسيره والتى تعتبر رسالة نحو (٤٧) سبع وأربعين صفحة ٠

ثم أخذ الطبري في تفسير القرآن الكريم سورة سورة ، وآية آية الى أن استوعبه كله ٠

وقد قرأت في كتابه كثيرا ، ونظرت فيه طويلا ، وتنقلت في رياضه النضرة اليانعة ، للوقوف على منهجه ، واستخراج خطته فوجدته - رحمه الله وأجزل مثوبته - :

يبدأ بذكر اسم السورة ، واذا كان لها أكثر من اسم ذكره سواء أكان توقيفيا أم اصطلاحيا ووصفا للسورة ٠

ثم يأخذ بعد ذلك في تفسير آياتها ، فيضع للآية - وكذلك لبعض جملها - عنوانا فيقول : القول في تأويل قوله تعالى : ٠٠٠٠٠٠٠٠ ويذكر الآية ، أو الآيات ، أو قطعة من الآية ، ثم يردفها ببيان معناها إجمالا - إذا كان المعنى متفقا عليه - في أسلوب قوي جزل رصين ممتع ، ثم يذكر الآراء الموافقة لما ذهب إليه وقال به مروية بأسانيد كاملة إلى قائليها ٠

أما إذا كان للآية الكريمة أو الجملة منها أكثر من معنى فإنه يرتب المعاني ثم يذكر لكل معنى الروايات المتعلقة به على حدة ثم يقوم بالمفاضلة بينها والاختيار منها ٠

ويعني في خلال تفسيره ببيان الصلة والتناسب بين الآية والآية ليستبين الترابط والتلاحم القوي بينهما في السياق والسباق ،

وتساوق الموضوعات ٠

ويعنى بذكر أسباب النزول مرويه بأسانيدها عناية كبيرة ٠

ويعتمد على تفسير القرآن بالقرآن : أى اذا وجد تفسير الآية وبيانا لمعناها ومغزاها فى موضع آخر من القرآن فسر به وعول عليه ٠

ويعتمد كذلك على تفسير الآيات بما روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبما روى عن الصحابة الكرام رضى الله تعالى عنهم ، وبما روى عن التابعين العظام رحمهم الله برحمته الواسعة ويتوخى جمع ما قيل فى الآية من أقوال عنهم ٠

وهولايقتصر على مجرد الرواية عنهم ، وانما يجمع بين آرائهم ان كانت مختلفة ومتساوية الدرجة وكان الجمع بينها ممكنا ووجيها مقبولا ، وان لم يكن الجمع فاضل بينها واختار الرأى الصواب ، ورد ما يراه جديرا بالرد ٠

وهو لايسرد الروايات ويتركها ، وانما كثيرا ما يرويها ويناقش سندها ويعدل من يجده عدلا ، ويجرح من يراه مجروحا ويرى عليه مأخذا ٠

وهو إذا ما نقد وأبان عن رأيه لايلقى الكلام والحكم على عواهنه ، وانما يكون نقده نقد بصير نحرير ، وحاذق خبير ، مما يدل على عمق علمه وتبحره ، وامامته فى الحديث وعلومه ٠

ويعرض أحيانا عن ذكر بعض الروايات التي لايرتضي سندها ، ويعلل لمسلكه هذا بأنها معلولة ٠

ويحمل بقوة على من يستعمل رأيه في تفسير القرآن وفهمه ، ويعول على مجرد رأيه تاركا ماروى عن السلف الصالح - رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين - غير عابئ به ، ولا رافع إليه رأسا ولا ملق له بالا ٠

ويعنى في تفسيره - كذلك - بذكر القراءات القرآنية ، وتوجيهها وبيان المقبول من غيره ، ويوازن بينها ، ويرد بعضها الجدير بالرد ، ويرجح بعضها على بعض معللا لما رجح واختار ٠

وفي توجيهه بعض التراكيب والقراءات القرآنية يورد أقوال النحاة ، ويقارن بينها ، ويعرب بعض الألفاظ في بعض الآيات ، كما أنه يزن بعض الكلمات في بعض الآيات وزنا صرفيا ، ويتعرض لألوان ومسائل بلاغية ، ويحتكم في ذلك الى المعروف والمشهور المألوف من لغة العرب ٠

ويناقش أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) سبع ومئتين ، وأبا عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة (٢٠٩هـ) تسع ومئتين ، وغيرهما من أهل اللغة والمعاني ، ويستشهد على ما يختاره بالشعر العربي الأصيل الجاهلي والاسلامي ٠

وله جولات علمية طيبة في بعض الألفاظ اللغوية حيث يبين المعنى الأصلي للفظ والمعنى المنقول اليه مع بيان مناسبة النقل ٠

ولاغرو في ذلك فهو إمام في القراءات ، وله فيها مؤلف ضخم وفحل من فحول اللغة العربية ، ومن حذاق مذهب النحاة الكوفيين ، وشهد له بذلك شيخه ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى إمام الكوفيين في اللغة والنحو والشعر المتوفى سنة (٢٩١هـ) احدى وتسعين ومئتين ٠

وألاحظ أن الامام الطبري يقف عند المعنى الذي تدل عليه الآية وتوحي به ، ويلتزم به ولايتجاوزه ، ولايستطرد بذكر أقوال أخرى زائدة على المعنى المستفاد لأنه لاينفع العلم بها ، ولايضر الجهل بها ، بل ينقد غيره ممن يهتمون بذكرها ويشغلون أنفسهم بما لافائدة منه ، ولاعائدة من ورائه ، ويعرض بهم كثيرا ٠

ويعرض لمسائل العقيدة فيتكلم فيها كلام العليم بها ، وينتصر لمذهب السلف الصالح ، وينتصر لأهل السنة والجماعة دائما ، ويناقش غيرهم فيرد على القدرية وأمثالهم من الفرق المختلفة الشاردة القاصية ٠

وهو في مناقشته وردوده واع دقيق جدل مقنع مدلل على ما يقول ٠

وفي تفسيره لآيات الأحكام يتطرق للمسائل الفقهية فيذكر

أقوال الأئمة الفقهاء ومذاهبهم ، ويوازن بينها ويرجح ما يراه جديرا بالترجيح ، وقد ينفرد برأي يخالف رأي غيره ويدعمه بالحجة والبرهان .

وهو فقيه حاذق متبحر، ولم لا يكون كذلك وهو امام ومجتهد مطلق وصاحب مذهب ، وقد كان له أتباعه ومريدوه ومقلدوه ويعرفون في التاريخ باسم : الجريرية .

ويعول في تفسيره في كل مباحثه اللغوية والفقهية والقراءات وغيرها على الاجماع ، ويحتج به كثيرا ، ويعيره أهمية كبرى .

وبوجد في تفسيره أحاديث وآثار كثيرة مسندة ، منها ما هو صحيح وما هو حسن ، وما هو ضعيف . وكل واحد من الثلاثة تنضوي تحته أنواعه ودرجاته ، لكن الطبري بذكره للضعيف بأسانيده دون إبداء رأيه وحكمه أخرج نفسه من المسئولية والعهدة ، وتحمل التبعة ، وأبرأ ذمته ، عملا بالقاعدة المعروفة المشهورة : " من أسند إليك فقد حملك " ومن المعلوم أنه " ليس كل ضعيف يرد " .

ولايخلو تفسيره من الروايات الاسرائيلية المروية عن كعب الأحبار المتوفى سنة (٣٢هـ) اثنتين وثلاثين ، ووهب بن منبه المتوفى سنة (١١٠هـ) عشر ومائة ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المتوفى سنة (١٥٠هـ) خمسين ومائة وغيرهم (١) .

---

(١) الثلاثة من التابعين ، وتاريخ وفاتهم مختلف فيه وماذكرته هو الأشهر .

وهو ناتج من اتساع معارفه وثقافته التاريخية ، وذكرهـــــــا بأسانيدها ورواها كما رواها له غيره من شيوخه لتبرأ ذمته عهدته بذكر سندها ، وهو لم يجعلها مهيمنة على تفسير القرآن الكريم ، وانمـــا قصد بذكرها الاستئناس والاستدلال بها وبخاصة في تفسير بعض آيات القصص القرآني كما يستدل بالشعر العربي القديم .

وأحيانا ينبه الى مصدرها ليأخذ القارىء حذره منها .

والى جانب هذا كله هو عالم واضح الشخصية ، مستقل الـــرأي جازم بما يقول ، غير هياب ولاوجل ، فلا يتردد ، ولايقلد غيره ، مما يدل على تمكنه مما يقول ، واعتداده برأيه ، وثقته القوية في نفسه .

واذا ما أختار رأيا في مسألة وخالف به رأي غيره من الأئمــــة وناقشه ورده ناقشه ورده بأدب جم ، وعفة لسان ، وطهارة جنان .

وفي الكتاب عبارات وجمل يكثر الامام الطبري من تكرارهـــا وترداده كقـــوله :

- القول في تأويـــل قـــوله تعـــالـــى : .... .
- القول في تأويـــل قوله جل ذكـــره : .... .
- القول في تأويل قـوله جـل ثناؤه : .... .
- اختلـف أهـل التأويـــل فـــي : .... .
- وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته

ظاهر التلاوة قول من قال : .... .

- والصواب في ذلك عندي : .... .

- وأولى التأويلات في ذلك عندي : .... .

- ذكر من قال ذلك : .... .

- وبمثل ما قلنا قال أهل التأويل .

- وبنحو ما قلنا قال أهل التأويل .

- وبنحو الذي قلنا في ذلك قال عدد من أهل التأويل .

- فإن قلت : ...... قيل لك : ....

- فان قال قائل : ...... قيل له : ....

ومما سلف تدرك أن تفسير الامام الطبري جامع للرواية والدراية وأن الرواية فيه غالبة على الدراية .

وأن تفسيره متكامل المنهج ، محكم الخطة ، حاو لثروة علمية ضخمة متعددة الألوان متنوعة الطعوم ، مما جعله بحق من أجلّ التفسير وأوثقها ، وأنفسها وأجمعها ، إن لم يكن كذلك على الاطلاق وصدق قول الأئمة الفطاحل الجهابذة عنه :

إنه تفسير لم يصنف مثله .

وصح إطباقهم على أن الإمام أبا جعفر الطبري شيخ المفسرين بلا منازع ، وأب التفسير ورائده بلا مدافع ، وأنه امتداد واحياء لمدرسة

حبر الأمة وفقيهها وترجمان القرآن الكريم : عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وعن أصحاب رسوله الكريم ورحمهم ورحم الامام الطبري رحمة واسعة .

ونسأله أن يشملنا بعفوه ورحمته ، ويعمنا بمغفرته ورضوانه ويلحقنا بالصالحين بمنه وفضله ، وجوده وكرمه .

******
****
**
*

((نمــاذج متنوعـــة من تفسيـــــره))

***

((ذكره لأسماء السور وكيفيته))
*****

يذكر الإمام أبو جعفر في تفسيره أسماء السور قبل تفسير آياتها - وهو أمر وترتيب طبيعي - بطريقتين :-

الطريقة الأولى :-
****

وهي المشهورة المعتادة لدى أغلب الناس وهي أن يذكر لفظ سورة مضافا الى الاسم ، كقوله : تفسير سورة آل عمران، تفسير سورة المائدة ، تفسير سورة الأنعام ، تفسير سورة ابراهيم عليه السلام ، تفسير سورة الحجر ، تفسير سورة النحل ••• وهكذا •

الطريقة الثانية :-
****

وهي غير مشهورة وغير معتادة لدى معظم الناس ، وهي أن يذكر لفظ السورة ويصفها بما ذكر فيها ، كقوله : تفسير السورة التي يذكر فيها النساء ، تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف تفسير السورة التي يذكر فيها الأنفال ••• وهكذا •

ولعله سلك هذا المسلك في تفسيره جامعا بين الطريقتين :- لبيان الجواز أي يجوز للمفسر وللمسلم أن ينطق بالطريقة الأولى ويسمي بها ،كما يجوز له أن ينطق بالطريقة الثانية •

وللرد على من زعم كراهة تسمية السور والنطق بها بالطريقة الأولى استدلالا ببعض الروايات ، وهي روايات غير مقبولة لأن بعضها ضعيف السند ، وبعضها الآخر موقوف على قائله .

والأحاديث المثبتة جواز أن يقال : سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة النساء ... الخ بلا حرج ولا كراهة صحيحة كثيرة مستفيضة ، فلا اعتداد بما يعارضها ولا تعويل عليه .

ونطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الأخيار ، والتابعون الأبرار ، ومن بعدهم من الأمة ، أسماء السور القرآنية بالطريقة المشهورة المعتادة كقولهم : سورة البقرة ، سورة آل عمران ... وهكذا .[1]

ولعل النهي الوارد في بعض الروايات المستشفة منه الكراهة كان في أوائل بزوغ الاسلام وفي فجره حينه كان المسلمون ضعافا وقلة أذلة ، وكان الكفار يستهزئون بهم ويسخرون من أسماء بعض السور مثل : سورة البقرة ، سورة المائدة ، سورة الأنعام ، سورة النحل ،

---

(١) انظر الروايات والتعليق عليها في كتاب : الدر النظيم في مباحث من علوم القرآن الكريم للمؤلف ص٢٠٧ -٢٠٩ طبعة دار الوفاء عام ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١م.

سورة النمل ، سورة العنكبوت ، سورة الدخان ، سورة الفيل .....

فلما ذاع الاسلام وشاع ، وعم وسطع نوره ، وقوى عوده ، وأشتد بأسه ، وازداد المسلمون عددا وشوكة وقوة ، وانقمع الكفار ، وانخرست ألسنتهم ، نسخ النهى ، وزال الحرج ، واستقر الأمر على جواز النطق بهذه التسمية .

فأبو جعفر رحمه الله تعالى - نهج نهجه المذكور لبيان جواز نطق أسماء السور بكل من الطريقتين .

((ذكره للروايات بأسانيدها وموقفه منها))

*****

ويعنى الإمام ابن جرير بذكر الروايات فى تفسيره بأسانيدها ولاشك أن ذكرها بأسانيدها فى غاية الأهمية ، إذ يفسح مجال البحث فيها ، ويتيح الكشف عنها ، ويسهل تمحيصها ، وقد أخطأ من المفسرين من ذكر الروايات فى تفسيره حاذفا سندها - بهدف وقصد الاختصار - لما فى ذلك التصرف من التعمية على القارئ وايقاعه فى الوهم ، وخلط صحيح الروايات بغيره ، وتجشيمه لمصاعب ، ومشاق البحث عن الروايات بأسانيدها .

غير أن ابن جرير - رحمه الله - كثيرا مايغفل الحكم على الأسانيد وعلى الروايات بالصحة أو بالضعف ، بالقبول أو بالرد .

وهو فى مسلكه هذا له عذره - كما يرى طائفة من العلماء - إذ أخذ بالقاعدة المشهورة " من أسند لك فقد حملك " : أى من ذكر لك الرواية بسندها فقد حملك مسئولية البحث عنها، والتنقيب فيها وفى رجالها ، وبرئت ذمته ، وأخرج نفسه من العهدة والمسئولية وأخلى سبيله من التبعة ، ولأنه كان فى زمن اشتهر فيه العلم برجال الحديث ونقلة الروايات ومعرفة أحوالهم .

وقد رأيت له روايات ذكرها بأسانيدها ولم يغفلها ويهملها وانما عقب عليها ونقدها نقد العالم البصير، والمحدث الخبير والإمام النحرير ، وعدل من رآه بحق أهلا للعدالة ، وجرح من رآه جديرا بالتجريح .

والى القارىء الكريم منهجه فى ذلك مشفوعا ببعض النماذج وبالله التوفيق :

١- يذكر الرواية وهى صحيحة ولايبين ذلك :

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى : إن الصفا والمروة من شعائر الله .. الآية (١) يقول :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى الليث ، قال : حدثنى عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : حدثنى عروة

---

(١) سورة البقرة ١٥٨

ابن الزبير ، قال : سألت عائشة فقلت لها : أرأيت قول الله (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو أعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) وقالت لعائشة : " والله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة ، فقالت عائشة : بئس ما قلت يا ابن أختي ، إن هذه الآية لو كانت كما أولتها كانت لا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدون بالمشلل ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة ، فلما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة أنزل الله تعالى ذكره (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو أعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) قالت عائشة ثم قد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما " (١)

فترى أنه ذكر الرواية ولم يبين حالها ، وهي رواية مشهورة وسبب لنزول الآية ، وبدون الوقوف عليها يخطئ الإنسان في

---

(١) جامع البيان للطبري ج٢ ، ص٤٧ - ٤٨

فهم الآية كما حصل لعروة رحمه الله تعالى ، وقد أخرجها الشيخان وأحمد وغيرهم من أهل الحديث بأسانيدهم (٢) ولعل الطبري لم يفصح عن حالها اكتفاء بذكر سندها ، وبشهرتها وتوافر الناس في زمانه على معرفة رجال الأحاديث والروايات ٠

٢- يذكر الرواية ثم يشير الى ضعف سندها :

فمثلا يقول في مقدمه تفسيره :

وهذا الوجه الرابع الذي ذكره ابن عباس هو أن أحدا لا يعذر بجهالته معنى غير الإبانة عن وجوه مطالب تأويله ، وانما هو خبر عن أن من تأويله مالايجوز لأحد الجهل به ، وقد روى بنحو ماقلنا في ذلك أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر في إسناده نظر ٠

حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت عمرو بن الحرث يحدث عن الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانيء ، عن عبد الله بن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الحج ٠ باب وجوب الصفا والمروة وجعلا من شعائر الله ج٢ ص١٩٣ وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الحج باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة =

وحرام لايعذر أحد بالجهالة به ، وتفسير يفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لايعلمه الا الله ، ومن أدعى علمه سوى الله فهو كاذب " اهـ (١)

فترى أنه أشار الى ضعف السند ، ومامن شك في أن في السند محمد بن السائب الكلبي ، وأبا صالح باذام مولى أم هانىء ، والرجلان ضعيفان (٢) .

وانظر في ذلك تفسيره لقوله تعالى :" واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن " الاية (٣) وغيرها من الآيات .

(٣) - يذكر الرواية وهي ضعيفة ولايشير الى ضعفها :

ففي تفسير قوله تعالى : (ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها ..) الآية (٤) يقول :

= ركن لايصح الحج الا به ج٣ ص٤١٢ وغيرها ، ومسند أحمد ج٦ / ١٤٤ / ١٦٢ / ٢٣٧

(١) جامع البيان للطبرى ج١ ص٣٤

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبى ج١ ص٢٩٦،وج٣ص ٥٥ وتهذيب التهذيب لابن حجر ج١ ص٣٦٤ وج٩ ص١٥٧

(٣) سورة البقرة ١٢٤

(٤) سورة هود عليه السلام ٦

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين قال : ثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد في قوله (ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها) قال : ماجاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا ، ولكن ماكان من رزق فمن الله . اهـ[1]

فترى أنه ذكر الرواية بسندها ولم يعقب عليها بشيء وهي رواية ضعيفة إذ في سندها الحسين بن داود المصيصي وهو ضعيف ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وفيه مقال .[2]

٤- وأحيانا يذكر الطبري الرواية ولايبين ضعف سندها لكنها تكون مقبولة ، ففي خلال تفسيره لقوله تعالى : واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولاتخاطبني في الذين ظلموا : الآية[3] يقول:

" حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج عن ابن جريج (ولاتخاطبني) قال : يقول : ولاتراجعني ، قال : تقدم ألا يشفع لهم عنده " اهـ[4]

(١) جامع البيان للطبري ج١٢ ص١

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ج١ ص٥٣٤ ،ج٢ ص٢٣٦ -٦٥٩ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٢ ، ص٢١٤ و ج٦ ص ٣٥٧

(٣) سورة هود عليه السلام ٣٧

(٤) جامع البيان للطبري ج١٢ ص٣٤ .

فترى أنه ذكر الرواية بسندها ولم يعلق عليها بشئ ، وهى رواية ضعيفة لأن فى سندها الحسين بن داود المصيصى وهو ضعيف ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وفيه مقال ، ومع ضعفها هى مقبولة باعتبارها تفسيرا لغويا للآية الكريمة وهو تفسير مقبول .

(٥) يذكر الرواية وهى ضعيفة ولايبين ضعفها ، ثم يذكر من الروايات مايعضدها : ففي أثناء تفسيره لقوله تعالى :

(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف .... الآية) (١) يقول :

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا عمرو بن محمد ، عن أسباط عن السدى قال : إن الله أرى الملك فى منامه رؤيا هالته ، فرأى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، فجمع السحرة والكهنة والحزاة والقافة، فقصها عليهم " فقالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين "

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن اسحق ، قال ثم إن الملك الريان بن الوليد رأى رؤياه التى رأى ، فهالته وعرف أنها رؤيا واقعة ، ولم يدرك ماتأويلها ، فقال للملأ

---

(١) سورة يوسف عليه السلام ٤٣

حوله من أهل مملكته (إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ..... الى قوله : بعالمين " اهـ (١)

فترى أنه ذكر الرواية الأولى ولم يكشف عن حالها ، وهي ضعيفة لأن في سندها سفيان بن وكيع بن الجراح ، وهو ضعيف وذكر الرواية الثانية ولم يفصح عن حالها كذلك ، وهي ضعيفة إذ في سندها شيخه محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف .(٢)

وقد تقوت الرواية الأولى وانجبرت بالرواية الثانية، كما تقوت الثانية ، وانجبرت بالأولى ، وتقوتا وانجبرتا معا برواية الأثر من طريق آخر ذكره السيوطي في كتابه ـ الدر المنثور ـ حيث قال : أخرجه ابن اسحق وابن أبي حاتم عن مجاهد .(٣)

ومن ثم ارتقت كلتا الروايتين من مرتبة الضعف الى مرتبة الحسن لغيره ، فتقبلان إذ ليس كل ضعف يرد .

---

(١) جامع البيان للطبري ج١٢ ص٢٢٥

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ج٢ ص١٧٣ ،ج٣ ص٥٣٠

وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٤ ص١٠٩ وج٩ ص١١١

(٣) انظر الدر المنثور للسيوطي ج٤ ص٢١

وهذا المنحى كثير مستفيض في تفسير الامام الطبري ٠

٦- يذكر جملة أقوال مقرونة برواياتها ثم يجمع بين معانيها ويوفق بين مضامينها : فمثلا في تفسيره لقوله تعالى : أوكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ٠٠٠ الآية (١) : ذكر أقوالا كثيرة وسرد روايات عديدة يطول عرضها ، ثم عقب عليها بما يفيد التوفيق بينها وعدم تنافيها فقال :

وهذه الأقوال التي ذكرنا عمن رويناها عنه ، فإنها وأن اختلفت فيها ألفاظ قائليها متقاربات المعاني ، لأنها جميعا تنبيء عن أن الله ضرب الصيب لظاهر إيمان المنافق مثلا ومثل ما فيه من ظلمات بضلالته ،وما فيه من ضياء برق بنور إيمانه ، واتقاءه من الصواعق بتصيير أصابعه في أذنيه بضعف جنأنه ، وتحير فؤاده من حلول عقوبة الله بساحته ، ومشيه في ضوء البرق باستقامته على نور إيمانه ، وقيامه في الظلام بحيرته في ضلالته وارتكاسه في عمهه ٠ اهـ (٢)

وهذا المسلك كثيرة أمثله في تفسير الطبري ، وهو محق في مسلكه ومذهبه ، إذ من المقرر والمعلوم لدى العلماء أن

---

(١) سورة البقرة ١٩

(٢) انظر جامع البيان للطبري ج١ ص ١٥٦

الخلاف بين السلف فى التفسير معظمه خلاف تغاير وتنوع فى التعبير وليس اختلاف تعارض وتناقض ٠

٧- وأحيانا يذكر الطبرى الأقوال والروايات ويوازن بينها ثم يختار ما يناسب المعنى ويراه صحيحا ملائما للأشهر الأعرف من كلام العرب ، فمثلا فى تفسيره لقوله تعالى (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) الآية (١) يقول :

وأما قوله (يوم الحج الأكبر) فإن فيه اختلافا بين أهل العلم ، فقال بعضهم : هو يوم عرفة ٠٠٠ وقال آخرون : هو يوم النحر ٠٠٠٠ وقال آخرون : معنى قوله (يوم الحج الأكبر) حين الحج الأكبر ووقته ، قال : وذلك أيام الحج كلها لايوم بعينه ٠

وبعد أن عرض الطبرى روايات كل قول وقرنها به - وهى روايات كثيرة - قال معقبا :

وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة عندنا : قول من قال : (يوم الحج الأكبر) : يوم النحر ، لتظاهر الأخبار عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عليا نادى بما أرسله به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرسالة الى المشركين ، وتلا

---

(١) سورة التوبة آية (٣) ٠

عليهم براءة يوم النحر ، هذا مع الأخبار التى ذكرناها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم النحر : أتدرون أى يوم هذا ؟ (هذا يوم الحج الأكبر) ، وبعد : فان اليوم إنما يضاف الى المعنى الذى يكون فيه ، كقول الناس : يوم عرفة ، وذلك يوم وقوف الناس بعرفة ، ويوم الأضحى ، وذلك يوم يضحون فيه ، ويوم الفطر ، وذلك يوم يفطرون فيه ، وكذلك يوم الحج ، يوم يحجون فيه ، وانما يحج الناس ويقضون مناسكهم يوم النحر ، لأن فى ليلة نهار يوم النحر الوقوف بعرفة كان الى طلوع الفجر ، وفى صبحيتها يعمل أعمال الحج فأما يوم عرفة فانه وان كان الوقوف بعرفة فغير فائت الوقوف به الى طلوع الفجر من ليلة الفجر ، والحج كله يوم النحر .

وأما ما قال مجاهد من أن يوم الحج أنما هو أيامه كلها فان ذلك وان كان جائزا فى كلام العرب فليس بالأشهر الأعرف فى كلام العرب من معانيه ، بل غلب على معنى اليوم عندهم أنه من غروب الشمس الى مثله من الغد ، وانما محمل تأويل كتاب الله على الأشهر الأعرف من كلام من نزل الكتاب بلسانه اهـ (1) .

فترى أن الطبرى ذكر الأقوال برواياتها ثم قارن بينها واختار القول بأن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، وفضله على ما عداه من الأقوال مستدلا بالروايات الكثيرة المتضافرة وملحا فى طلبه أن يفسر

---

(1) جامع البيان للطبرى ج١٠ ص٦٧- ٧٥ .

القرآن ويحمل على الأشهر الأعرف من كلام العرب لنزوله بلسانهم وهذا المسلك من تفسير القرآن الكريم بالسنة المطهرة ٠

وهذا الدرب سار عليه الامام الطبرى فى تفسيره لآيات كثيرة كقوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)(١) وقوله سبحانه (بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين)(٢) الآية وغيرهما من الآى ٠

٨ - يذكر الرواية وهى موضوعة ولاينبه الى حالها :

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ٠٠)(٣) يذكر حديثا طويلا بسنده فيقول :

حدثنا عصام بن رواد بن الجراح ، قال : ثنا أبى ، قال : ثنا سفيان بن سعيد الثورى ، قال : ثنا منصور بن المعتمر ، عن ربعى بن حراش ، قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان بنى اسرائيل لما اعتدوا وعلوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر ، وكان الله ملكه سبعمائة سنة ، فسار اليهم حتى دخل بيت المقدس ، فحاصرها وفتحها ، وقتل على دم زكريا سبعين ألفا ، ثم سبى أهلها وبنى

---

(١) سورة التوبة آية (٦) ٠ (٢) سورة هود عليه السلام آية (٨٦)٠

(٣) سورة الاسراء آية (٤) ٠

الأنبياء ، وسلب حلى بيت المقدس ، واستخرج منها سبعين ألفــا ومائة ألف عجلة من حلى حتى أورده بابل ، قال حذيفة :فقلت : يــا رسول الله لقد كان بيت المقدس عظيما عند الله ؟ قال : أجــل ، بناه سليمان بن داود من ذهب ودر وياقوت وزبرجد ، وكان بلاطــه بلاطة من ذهب ، وبلاطة من فضة ، وعمده ذهبا ، أعطاه الله ذلــك ، وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء فى طرفة عين ، فســار بختنصر بهذه الأشياء حتى نزل بها بابل ، فأقام بنو اسرائيل فــى فى يده مائة سنة ، تعذبهم المجوس وأبناء المجوس ، فيهم الأنبياء وأبناء الأنبياء ثم أن الله رحمهم فأوحى الى ملك من ملوك فــارس يقال له كورس ، وكان مؤمنا : أن سر الى بقايا بنى اسرائيل حتــى تستنقذهم ، فسار كورس ببنى اسرائيل وحلى بيت المقدس حتى رده اليه ، فأقام بنو اسرائيل مطيعين لله مائة سنة ، ثم إنهم عادوا فــى المعاصى ، فسلط الله عليهم ابطيا نحوس ، فغزا بأبناء من غــزا مع بختنصر ، فغزا بنى اسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس ، فسبــى أهلها ، وأحرق بيت المقدس ، وقال لهم : يا بنى اسرئيل ان عدتــم فى المعاصى عدنا عليكم بالسباء ، فعادوا فى المعاصى ، فسير اللــه عليهم السباء الثالث ملك رومية يقال له قاقس بن اسبايوس ، فغزاهم فى البر والبحر ، فسباهم وسبى حلى بيت المقدس ، وأحرق بيــت

المقدس بالنيران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا من صنعة حلى بيت المقدس ، ويرده المهدى الى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة ، يرسى بها على يافا ، حتى تنقل الى بيت المقدس ، وبها يجمع الله الأولين والآخرين أهـ (١) .

وأقول : ان هذه الرواية مكذوبة مصنوعة ولاأساس لها من الصحة وتحمل فى طياتها وثناياها من الخيال والغرابة والنكارة ما يدل على كذبها ووضعها واسرائيليتها المتهافتة ، وأعجب من جرأة وجسارة من حاكها ورفعها الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : كما أعجب من ذكر ابن جرير لها دون بيان لحالها وهى لاتساوى القرطاس الذى سودت عليه ، ولاالمداد الذى كتبت به ، قال العلامة الامام الحافظ ابن كثير فى خلال تفسيره للآية المذكورة : وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا ، وهو حديث موضوع لا محالة ، لايستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث ، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وامامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى رحمه الله بأنه موضوع مكذوب ، وكتب ذلك على حاشية الكتاب أهـ (٢) .

---

(١) جامع البيان للطبرى ج١٥ ص٢٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٢٥ .

٩ - وأحيانا يذكر ابن جرير رواية عن مجاهد بن جبر ، ولايعجبه قوله الوارد فيها ، فيعقب عليه بقوله : ان رأيه يخالف اجماع الحجة الذين لايمكن نسبتهم الى الكذب ، أويقول : وما ذكرهنا عن مجاهد لامعنى له ، وفساد رأيه لاشك فيه .

ويصنع ذلك مع الضحاك بن مزاحم الهلالي ، وقتادة بن دعامة السدوسي وغيرهما .

وهكذا نرى أن الامام الطبري يملأ تفسيره بالرويات والآثار وله في عرضها منهجه الرائد الذي يدل على سعة علمه ، وحدة ذكائه وبروز شخصيته ، واستقلال رأيه ، وجرأته في الحق ، وهو أمر متوقع من مثل ابن جرير ، ومنتظر من هذا الامام الهمام ، والرائد القائد ، فقد أخذ الحديث عن فطاحل العلماء العراقيين والشاميين وغيرهم كأبي كريب محمد بن العلاء الهمداني بالكوفة ، ومحمد بن حميد الرازي بقرى الري وغيرهما ، وتجول في مختلف الأمصار ينهل ويغترف من بحار علمهم حتى شارك الامام البخاري في بعض شيوخه ، ورحل الى مقر الامام أحمد بن حنبل ليأخذ عنه ويغترف من رحيق علمه ، لكن جاءه أجله ، واخترمته منيته قبل وصول الطبري اليه ، وجلوسه بين يديه ، وتلمذته عليه .

وظل الطبري يجمع الحديث ويلتقطه ويحفظ ويتقن ويضبط بهمة

١

وحيوية ، حتى صار إماما من أئمة الحديث أهل الرواية والضبط المتقن ، بل صار إماما فذا ، وعالما جهبذا ، مشهودا له بالتبحر والاقتدار ، من أكابر الأئمة في مختلف الأعصار والأمصار ، حتى ان الإمام النووي ذكر في كتابه - تهذيب الأسماء واللغات[(١)] أنه في طبقة الإمام الترمذي والإمام النسائي ، وعده الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي في الحديث من رجال الطبقة السادسة[(٢)] .

ولولوعه بالحديث وشغفه بهذه البضاعة الرائجة الرابحة وغلبتها عليه صنف كتابه في التاريخ المسمى - بتاريخ الرسل والملوك - على طريقة المحدثين ، رحم الله الامام الطبري برحمته الواسعة ، وأثابه كتبه النافعة .

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج١ ص٧٨ وأثنى عليه الامام النووي .

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج٢ ص٧١٥ .

((موقفه من الإسرائيليـــــات))

****

ولم يخل تفسير ابن جرير من الروايات الإسرائيلية ، ولم يسلم من ذكرها والإكثار منها ، وهو حين يذكرها يرويها بسندها الى كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، ومحمد بن مروان السدى الصغير وغيرهم.

كما أنه ينقل أحيانا عن محمد بن إسحق بعض الروايات المروية عمن أسلم من النصارى .

وهذا مرده إلى تأثره بالروايات التاريخية وسعة ثقافته كمؤرخ وشغفه بنقل وجمع ماقيل وروى لتفصيل ما أجمل فى القرآن من باب أداء الأمانة والمحافظة على الروايات من الضياع ، ووضع كل ما وصلت اليه يداه وبلغه من روايات بين أيدى القراء .

وقد برئت ذمته وخرج من العهدة والتبعة بذكر الروايات بأسانيدها ، والتعقيب على بعضها بالنقد ، أو لفت النظر الى رجالها وبيان أنهم ممن اشتهروا بالإسرائيليات ، وقد اعتذر الطبرى فى مقدمة كتابه التاريخى " تاريخ الرسل والملوك " عن عدم اهتمامه بنقد كل الروايات التاريخية الضعيفة والإسرائيلية بقوله :وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت

ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه ، إنما هو على مارويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، الا اليسير القليل منه ، اذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا باخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس ، فمايكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممايستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة ولامعنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أتي من قبل بعض ناقليه الينا ، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي الينا اهـ (١) ·

فالامام الطبري يعتذر - كما ترى - عن نقله للروايات ، الإسرائيلية والمستغربة ، ويذكر أنه نقلها وأداها كما نقلت وأديت اليه ·

والى أخي القارئ نماذج من تفسيره يتضح من خلالها منهجه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج١ ص٧-٨ المقدمة ·

فى عرض الإسرائيليات :

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة . الآية [1] يقول :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن أبى عتاب رجل من تغلب ، كان نصرانيا عمرا من دهره ثم أسلم بعد فقرأ القرآن ، وفقه فى الدين ، وكان فيما ذكر أنه كان نصرانيا أربعين سنة ، ثم عمر فى الاسلام أربعين سنة ، قال : كان آخر أنبياء بنى اسرائيل نبيا بعثه الله اليهم ، فقال لهم : يابنى اسرائيل ان الله يقول لكم إنى قد سلبت أصواتكم ، وأبغضتكم بكثرة أحداثكم ، فهموا به ليقتلوه فقال الله تبارك وتعالى له : ائتهم واضرب لى ولهم مثلا ... " [2]

الى آخر الرواية وهى رواية طويلة إسرائيلية ذكرها بسندها وذكر فى السند مايسترعى النظر ويلفت الانتباه وينبه الى إسرائيليتها وهو وصف أبى عتاب بأنه رجل من تغلب قضى نصف عمره فى النصرانية ونصف عمره الثانى فى الاسلام.

---

(١) سورة الإسراء ٧

(٢) انظر جامع البيان للطبرى ج١٥ ص٤٢ -٤٣

وسلك ابن جرير هذا المسلك فى تفسير قوله تعالى : قالـــوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ٠٠ الآيه (١) وغيرها من الآيات ٠

وأحيانا يذكر جملة أقوال ثم يرد فى كل قول بما ورد فيه مـــن روايات ، ثم يعقب عليها بما يفيد العموم وعدم جواز قبول أحدها ورد الآخر لعدم وجود دليل يرجح القبول أو يرجح الرد ، ويتـــرك الأمر احتماليا كما قال فى خلال تفسيره لقوله تعالى : وقال لهـــم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقيـــة مما ترك آل موسى وآل هـرون تحمله الملائكة : الآية (٢) :

واختلف أهل التأويل فى معنى السكينـــة :

فقال بعضهم : هى ريح هفافة لها وجه كوجه الانسان ، وروى الطبرى مايفيد أن هذا قول على بن ابى طالب : كما روى عنه أن لهـــا رأسين ٠

وقال آخرون : لها رأس كرأس الهرة وجناحان ، وروى الطبـــرى مايفيد أن هذا قول مجاهد بن جبر ، كما روى عنه أن لها جناحين وذنبا كذنب الهرة ٠

---

(١) سورة الكهف ٩٤
(٢) سورة البقرة ٢٤٨

وقال آخرون : بل هي رأس هرة ميتة . وروى الطبري مايفيد أن هذا قول وهب بن منبه عن بعض أهل العلم من بني اسرائيل .

وقال آخرون : انما هي طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء ، وروى الطبري مايفيد أن هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقول السدي .

وقال آخرون : السكينة روح من الله يتكلم اذا اختلفوا في شيء ويخبرهم ببيان مايريدون ، وروى الطبري مايفيد أنه قول وهب بن منبه .

وقال آخرون : السكينة مايعرفون من الآيات فيسكنون اليه وروى الطبري مايفيد أن هذا قول عطاء بن أبي رباح .

وقال آخرون : السكينة : الرحمة ، وروى الطبري مايفيد أنه قول الربيع بن أنس .

وقال آخرون : السكينة هي الوقار ، وروى الطبري مايفيد أنه قول قتادة بن دعامة السدوسي .

ثم قال الطبري بعد ذكر كل قول برواياته معقبا :

وأولى هذه الأقوال بالحق في معنى السكينة : ماقاله عطاء بن أبي رباح من الشيء تسكن اليه النفوس من الآيات التي يعرفونها ، وذلك أن السكينة في كلام العرب . الفعيلة ، من قول القائل :

سكن فلان إلى كذا وكذا : إذا اطمأن إليه وهدأت عنده نفسه ، فهو يسكن سكونا وسكينةً مثل قولك : عزم فلان على هذا الأمر عزما ، وعزيمة ، وقضى الحاكم بين القوم قضاء وقضية ، ومنه قول الشاعر :

لله قبر غالها ماذا يجن لقد أجن سكينة ووقارا (١)

وإذا كان معنى السكينةً ماوصفت فجائز أن يكون ذلك على ماقاله على بن ابى طالب على ماروينا عنه ، وجائز أن يكون ذلك على ماقاله مجاهد على ماحكينا عنه ، وجائز أن يكون ماقاله وهب بن منبه ، وماقاله السدي ، لأن كل ذلك آيات كافيات تسكن إليهن النفوس وتثلج بهن الصدور ، وإذا كان معنى السكينة ماوصفنا فقد اتضح أن الآية التى كانت فى التابوت التى كانت النفوس تسكن اليها لمعرفتها بصحة أمرها انما هى مسماة بالفعل وهى غيره لدلالة الكلام عليه ٠اهـ (٢)

فترى أن الإمام الطبرى ذكر اقوالا كثيرة فى بيان المراد ، بالسكينةً ، وأعقب كل قول برواياته ، والناظر فى هذه الأقوال برواياتها يجدها متناقضة متباينةً مضطربةً لايمكن الجمع

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ج٣ ص٢٠٥٣ مادة : سكن ٠ والبيت لابن برى أنشده لأبى عريف الكليبى ٠

(٢) انظر جامع البيان للطبرى ج٢ ص٦١١ -٦١٣

والتوفيق بينها ، وبخاصة الأقوال الستة الأولى ، فمن الأقـــوال ، والروايات مايفيد أن السكينة حيوان ، ومنها مايفيد أنها جماد ومنها مايفيد أنها شيء لايفهم ولايعقل ، فهى أقوال مـــردودة مستقاة من روايات إسرائيلية أراد بها أعداء الإسلام التلاعـــب بالمسلمين والتشكيك عليهم والنيل منهم ، ولم يأت في القـــرآن الكريم ولافي السنة المطهرة المرفوعة الصحيحه مايدل على صحة وسلامة شيء من هذه الأقوال التي تضمنتها تلك الروايات ، وإن العقل لايتقبل ماقبل من أن الريح لها رأسان ، ووجه كوجه الانسان ولها ذنب كذنب الهر وجناحان فهى أقوال لايصدقها نقـــل ولايؤيدها عقل٠

والواجب - والحالة هذه - الرجوع في تفسير السكينة إلى لغة العرب التي نزل بها القرآن ، وتفيد اللغة أن السكينة هـــى الطمأنينة التي تحل في القلب ، والسكون والهدوء الذي تثبـــت به النفس ، ويصدق هذا قوله تبارك وتعالى في سورة التوبة ٠ : ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين [١] وقوله جل ثناؤه في صدر سورة الفتح : هو الذي أنزل السكينة في قلـــوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع ايمانهم [٢] أي طمأنينته وثباتـــه ،

---

(١) سورة التوبة ٢٦ (٢) سورة الفتح ٤

ومماقاله الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات في مادة سكن:
وقيل السكينة والسكن واحد وهو زوال الرعب ، وعلى هذا قوله تعالى : أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) وماذكر أنه شيء رأسه كرأس الهر فما أراه قولا يصلح اه (١) .

أما القولان الأخيران اللذان ذكرهما الطبري فهما مقبولان متقاربان في المعنى، وليته أخذ بهما .

وبناء على ماتقدم يكون وجود التابوت مزيلا للرعب والخوف محلا للطمأنينة جالبا للهدوء والثبات في جماعة بني إسرائيل وكل ذلك من فضل الرب ومدده ، وعونه وكرمه ، جل وعلا .

ونلحظ أن الطبري- رحمه الله - في تفسيره للسكينة متأثر بالروايات الإسرائيليه .

وسلك الإمام الطبري نفس المسلك في تفسيره لقوله تعالى في نفس الآية : وبقية مماترك آل موسى وآل هرون " .

وأحيانا يذكر الإمام الطبري الرواية الاسرائيلية ويتركها دون أن يتكلم عن سندها أو يعقب عليها بشيء فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى : ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب ص٢٣٧

منه ٠٠ الآيـة [١] يذكر روايـات فيقـول :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن اسحق ، عن الحسن ابن دينار ، عن علي بن زيد بن جدعان ، قال ابن حميد ، قـــال سلمة : وحدثني حسن بن علي بن زيد عن يوسف بن مهران قـال : سمعته يقول : لما آذى نوحا في الفلك عذرة الناس أمر أن يمسح ذنب الفيل ، فمسحه ، فخرج منه خنزيران ، وكفى ذلك عنه ، وان الفأر توالدت في الفلك ، فلما آذته أمر أن يأمر الأسد يعطس فعطس ، فخرج من منخريه هران يأكلان عنه الفأر ٠

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا سفيان عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، قال : لما كان نوح في السفينة قرض الفأر حبال السفينة ، فشكا نوح ، فأوحــى الله إليه ، فمسح ذنب الأسد ، فخرج سنوران ، وكان في السفينــة عذرة ، فشكا ذلك الى ربه ، فأوحى الله اليه ، فمسح ذنب الفيــل فخرج خنزيـران ٠٠٠

حدثت عن المسيب ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، قال : قـــال سليمان القراشي : عمل نوح السفينة في أربعمائة سنة ، و أنبت الساج أربعين سنة ، حتى كان طوله أربعمائة ذراع ، و الـــذراع

---

(١) سورة هود عليه السلام ٣٨

الى المنكب ا٠هـ[(١)]

فهذه روايات إسرائيلية رواها الإمام الطبرى ولم يعقب عليها بشيء ، وهي مردودة لكونها إسرائيلية وفيها غرابة ، وفي إسنادها رواة ضعاف كأبي عبد الله محمد بن حميد الرازى شيخ الطبرى والحسن بن دينار وعلى بن زيد بن جدعان ، والمسيب بن شريك ، ولم يذكر الطبرى من حدثه ، فهو حدث عن راو محذوف مجهول الحال ٠[(٢)]

ونحا الطبرى هذا المنحى فى أثناء تفسيره لآيات أخرى كقوله تعالى : ٠٠٠ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ٠٠ الآية[(٣)] وقوله تعالى : " فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين "[(٤)] وقوله جلا وعلا : ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ٠[(٥)]

---

(١) جامع البيان للطبرى ج١٢ ص٣٧ -٣٨ ٠
(٢) سورة البقرة ٢٦٠
(٣) وانظر ماعقب به العلامه الآلوسى عليها فى تفسيره ج١٢ ص٥٠ ، وميزان الاعتدال للذهبى ج١ ص٤٨٧ ، ج٣ ص١٢٧ -٥٣٠ ،ج٤ ص١١٤ وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٢ ،ص٢٤٠ ،ج٧ ،ص٢٨٣ ،ج٩ص١١١
(٤) سورة البقرة ٢٦٠
(٥) سورة الأعراف ١٠٧
(٦) سورة ص ٣٤

حيث ذكر روايات في فتنة سليمان عليه السلام وقصة صخر المارد وهي روايات إسرائيلية مكذوبة خيالية غريبة ، ولم يعقب عليها بما يفيد بطلانها ووضعها ٠

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لتلك الآية :

وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ٠ اهـ (١)

وهكذا نجد أن الامام الطبري اكثر من ذكر الروايات الإسرائيلية في تفسيره ، ولم يعقب على كثير منها بشيء ، وهو مأخذ أخذه عليه بعض العلماء ، واعتذر عنه علماء آخرون بأنه برئت ذمته من العهدة ، وخرج من التبعة حيث ذكرها بأسانيدها ، ومن أسند إليك فقد حملك مسئولية البحث والفحص والتنقيب عن رجال السند وتفقد الروايات ، وهو إذ ذكرها مسندة ذكرها في زمن توافر فيه الناس على معرفة حال السند والعلم بالرجال دون توقف على تنبيه منه ٠

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ، ص٣٦

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه - لسان الميزان - أثناء ترجمته للإمام الطبراني :

إن الحفاظ الأقدمين يعتمدون في روايتهم الأحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الأسانيد لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث بإسناده فقد برئوا من عهدته ، وأسندوا أمره إلى النظر في إسناده اهـ (١) .

ولم يجعل الطبري الروايات الإسرائيلية مهيمنة ومسيطرة على تفسير كتاب الله الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإنما استشهد بها مجرد استشهاد كما يستشهد بالشعر القديم على فهم معنى كلمة ، أو الدلالة على سياق جملة أو سياق حادثة ، فليست الروايات متعلقة بأمر عقدي أو حكم شرعي وذكرها للاستشهاد لا للاعتقاد .

وأقول : ليت الإمام الطبري نزه تفسيره عن ذكر الإسرائيليات ففي ذكرها إبان تفسير آية من كتاب الله يوهم حمل الآية عليها وتفسيرها بها إن لم يكن الأمر كذلك ، وفي ذكرها مضيعة للوقت وعدم جدوى وفائدة ، ومعظمها يجنح إلى الخيال ، ويجمح إلى

---

(١) انظر لسان الميزان لابن حجر ج٣ ، ص٧٥

الكذب ، ويخالف العقل والواقع ، بل فى بعضها مايخدش بعض الأنبياء كما روى فى حق أيوب وداود وسليمان وغيرهم - عليهم السلام - ممايخالف النقل والعقل والواقع ، ويتنافى مع عصمتهم ومهمتهم ، وكلها روايات مفضوحة ، وأقوال مقدوحة ٠

وليته إذ ذكرها تريث وتمهل وعقب على كل منها بما يبين حالها حتى يفطن القارئ إليها ولايغتر بها ، فهو لم يؤلف لنفسه ، ولا لزمانه وللمعاصرين له فقط ، ولا لعلماء متخصصين وانما ألف لكل من يريد التعلم والتثقف ، ويبغى الفهم والوقوف على معانى الآيات القرآنية سواء أكانوا فى عصره أم فى العصور اللاحقة الى ماشاء الله ٠

ونحمد الله أن أرشد وهدى أعضاء قسم التفسير بكلية أصول الدين بالقاهرة إلى عمل جليل ، وهو قيامهم بتقسيم تفسير الطبرى - وغيره من التفاسير الكبيرة - على طلاب الدراسات العليا ، وقام إخواننا الباحثون بإعداد رسائل علمية لنيل درجة الماجستير والدكتوراه فى بيان الدخيل والإسرائيليات فى تفسير الطبرى وغيره ، وهو جهد مشكور ، وعمل مأجور ، فجزاهم الله عن الإسلام والعلم وأهله خيرا ٠

وليت كتاب الطبري الذي صنفه في التاريخ والمسمى بتاريخ الرسل والملوك ، أو تاريخ الأمم والملوك كما يسميه البعض يحظى بما حظي به كتابه في التفسير من نقد للإسرائيليات وكشف حال الأسانيد والروايات٠

ورحم الله تبارك وتعالى - الإمام عبد الله بن عباس ورضي عنهما فقد قال قولة بديعة رفيعة رائقة رائعة رواها الإمام البخاري ، شيخ المحدثين بسنده وهي :

" يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله محضا لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا ، فكتبوا بأيديهم قالوا هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمنا قليلا ، أولاينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم ، فلا والله مارأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم "٠ (١)

(١) أنظر صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء ج٩ ص ١٣٦ وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى كل يوم هو في شأن ص١٨٧ ٠

ورحم الله العلامة الحافظ ابن كثير فقد قال عند تفسيره لقوله تعالى : وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ... الآية (١) :

" .... ومنها - أى من الإسرائيليات - ماقد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا ، وفى القرآن غنية عن كل ماعداه من الأخبار المتقدمة لأنها لاتكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث ، وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعيين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال : كل ذلك صيانة للجناب النبوى ، والمقام المحمدى ، خاتم الرسل ، وسيد البشر صلى الله عليه وسلم ، أن ينسب اليه كذب ، أو يحدث بماليس منه ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم

(١) سورة الكهف ٥٠

وقد فعل " اهـ [١]

وقال عند تفسير قوله تعالى : ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ... الآية [٢] :

" ... وما ليس فيه - يعني في المروى من الأخبار الإسرائيلية - موافقة ولا مخالفة - للحق - لانصدقه ولانكذبه ، بل نجعله وقفا وماكان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته وكثير من ذلك مما لافائدة فيه ولاحاصل له مماينتفع به في الدين ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم فإنهم لاتفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة " اهـ [٣] .

وصدق الإمام ابن عباس - رضي الله عنهما - حبر الأمة وفقيهها وترجمان القرآن في قيله ، وصدق الحافظ ابن كثير في كلامه إذ في

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٨٩ (٢) سورة الأنبياء ٥١

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١٨١ - ١٨٢ وانظر ماقاله في خلال تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء : وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ... الآيات ج٣ ص ٢٥ .

النصوص الشرعية الإسلامية من قرآن وسنة مايكفي ويغني عن الرويات والأخبار الإسرائيلية ، ويشفي العليل ، ويروي الغليل ٠

((موقفه من التفسير بالرأي المجرد))

*****

والإمام الطبري يدعو بقوة وهمة وحماس من يعزم على تفسير القرآن الكريم ، ويأخذ نيه ، إلى الأخذ بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابه الكرام ، والتابعين العظام ، ونقل عنهم نقلا صحيحا ، وبخاصة فيما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص مأثور عنهم ٠

ويرى أن ذلك المسلك أمر ضروري وحتمي في التفسير وأمارة على التفسير الصحيح الرشيد ، وهو محق فيما قال ، لأنهم أعلم بالدين ، وأقرب الى منبعه الصافي الشافي ، وعايشوا - الصحابة - نزول الوحي وملابساته ، ولأنهم جميعا أدرى باللغة العربية وأوسع بها علما ، فهم يمتازون عن غيرهم ممن جاءوا بعدهم ٠

وقد وضح أبو جعفر موقفه هذا من التفسير بالرأي المجرد في مقدمة تفسيره حيث عقد فصلا طالب فيه بضرورة الأخذ بالمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ،

والتابعين . وبين أن ذلك هو العلم النافع الصحيح ، وأنه لايجوز لأحد أن يقول في القرآن قولا برأيه المجرد - ولو أصاب الحق - لأن مسلكه هذا خطأ وإصابته للحق ليست إصابة موقن به ، وانما هي إصابة خارص وظان ، والقول على الله بمحض الخرص والظن قول عليه بغير علم ، وهو محرم أخذا من قوله تعالى : قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون "(1)

ولذا فهو يجادل بقوة وبراعة من يفسرون القرآن بمحض آرائهم واستقلال تفكيرهم ، ويجعلونه ميدانا لصراع الآراء ، والأفكار . وساحة للتعسف العقلي في التفسير ، ويحمل عليهم وكثيرا ما يرد الآراء التي تقال بمحض الرأي ، أو اعتمادا على مجرد اللغة . أيا كان قائلها ، لمخالفتها لظاهر نص القرآن الكريم ولعدم استنادها إلى حجة مقبولة ، فمثلا :

عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة : **"ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين"**(2)

---

(1) انظر مقدمة جامع البيان للطبري ج1 ،ص34-35 والآية المذكورة من سورة الأعراف رقم33 .

(2) سورة البقرة 65

يقـــول :

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عـــن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد [(١)] : ولقد علمتم الذين اعتدوا منكـــم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين " قال : مسخت قلوبهـــم ولم يمسخوا قردة ، وانما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمـــار يحمل أسفارا ٠

قال الإمام أبو جعفر معقبـا :

وهذا القول الذي قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب اللـــه

---

(١) هو مجاهد بن جبر المكي المقرىء المفسر ، أحد تلاميذ ابـــن عباس وأوثق من روى عنه ، عرض القرآن على ابن عباس رضي اللــه عنهما مرات كثيرة يسأله عند كل آية ويستفسر منه ، وكـــان إماما في التفسير حتى قال الإمام سفيان الثوري : إذا جـــاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به " واعتمد على تفسيره أقطـاب الدين وأئمة العلم وأساطينه كالشافعي والبخاري ، وأجمعـت الأمة على إمامته والاحتجاج به ٠ وتوفي بمكة وهو ساجـــد عام ١٠٤ هـ ٠ انظـر مقدمة تفسيـر الطبري جامع البيان ج١ ، ص٤٠ ، وميزان الاعتدال للذهبي ج٣ ، ص٤٣٩ - ٤٤٠ وتهذيـــب التهذيب لابن حجر ج١٠ ، ص٣٨ - ٤٠ ٠

مخالف ، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القـــردة ، والخنازير وعبد الطاغوت ، كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهـم: " أرنا الله جهرة " [١] ، وأن الله تعالى ذكره أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم ، وأنهم عبدوا العجل ، فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة ، فقالوا لنبيهم : فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون " [٢] فابتلاهم بالتيه.

فسواء قال قائل : هم لم يمسخهم قردة ، وقد أخبر جل ذكره أنه جعل منهم قردة وخنازير ، وآخر قال : لم يكن شيء مما أخبر الله عن بني اسرائيل أنه كان منهم من الخلاف على أنبيائهم والعقوبات والأنكال التي أحلها الله بهم ، ومن أنكر شيئا من ذلك وأقر بآخر منه سئل البرهان على قوله ، وعورض فيما أنكر من ذلك بما أقر به ، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح ، هذا مع خلاف قول مجاهد قول جميع الحجة التي لايجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعةً عليه ، وكفى دليلا على فساد قول إجماعها على تخطئته اهـ. [٣]

فابن جرير فند بالدليل رأي مجاهد - رحمهما الله تعالى -

---

(١) سورة النساء : ١٥٣
(٢) سورة المائدة : ٢٤
(٣) جامع البيان للطبري ج١ ص٣٣٢

وأنكر عليه تفسيره للآية برأيه المجرد وعقله الذى أعطاه حرية واسعة فى فهم بعض آيات القرآن الكريم ·

وعند تفسير قوله تعالى : ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون " (١) يقول ابن جرير :

حدثنى المثنى ، قال : أخبرنا إسحق ، قال : ثنا عبد الرحمن ابن أبى حماد ، قال : ثنا الفرج بن فضالة عن على بن أبى طلحة (٢) قال : كان ابن عباس يقرأ " وفيه تعصرون " بالتاء ، يعنى تحتلبون ·

ثم يقول ابن جرير مذيلا ومعقبا بعد ذكره للأقوال مروية عن السلف ، وللقراءات وتوجيهها بالقدر الذى يتضح به معنى الآية :

---

(١) سورة يوسف عليه السلام : ٤٩

(٢) هو على بن سالم بن مخارق كأن من أهل حمص ومن الرواة والمفسرين أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد بن جبر لكنه لم يذكر مجاهدا فى السند وأرسل التفسير عن ابن عباس إرسالا وله روايات منكرة ، وقال النسائى : ليس به بأس ، وذكره ابن حبان فى الثقات وتوفى عام ١٤٣ هـ : انظر ميزان الاعتدال للذهبى ج٣ ، ص١٣٤ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٧ ص٢٩٨ ، ٢٩٩ ·

وكان بعض من لاعلم له بأقوال السلف من أهل التأويل (١) ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب يوجه معنى قوله (وفيه يعصرون) الى : وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث ، ويزعم أنه من العصر ، والعصر التى بمعنى المنجاة ، من قول أبى زبيد الطائى :

صاديا يستغيث غير مغاث *** ولقد كان عصرة المنجود

أي المقهور ، ومن قول لبيد :

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم *** وماكان وقافا بغير معصر

وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين .

وأما القول الذى روى الفرج بن فضالة ، عن على بن أبى طلحة فقول لامعنى له ، لأنه خلاف المعروف من كلام العرب ، وخلاف

(١) اختلف العلماء فى المراد بالتأويل فى اصطلاح المفسرين :
فيرى بعضهم أنه مرادف للتفسير وأن النسبة بينهما هى التساوى ، وشاع هذا المعنى لدى العلماء القدامى كمجاهد بن جبر وأبى جعفر بن جرير وغيرهما من السلف ومتقدمى العلماء ، فالتأويل والتفسير عند ابن جرير وأضرابه بمعنى واحد .
ويرى بعضهم أن بين الكلمتين فرقا ومغايرة ، واختلفوا فى بيان المراد بهما ، وتعيين النسبة التى بينهما ، وهذه =

مايعرف من قول ابن عباس رضي الله عنهما اهـ (١)

وهكذا نرى أن ابن جرير رحمه الله يتصدى لمن يفسر القرآن برأيه المجرد ، ويعول على فكره المحض ، أو على اللغة وحدها ضاربا بالمأثور عرض الحائط ، تاركا له وراءه ظهريا ، وينكر هذا المسلك على صاحبه وسالكه إنكارا شديدا ، وقد التزم بهذا الموقف في تفسيره ، والنماذج لذلك كثيرة شتى في تفسيره٠

= المسألة مبسوطة في المصنفات المطولة في مادتي : علوم القرآن ومناهج المفسرين ٠

(١) جامع البيان للطبري ج١٢ ، ص٢٣٣ -٢٣٤ ٠ وانظر البيتين في لسان العرب ج٤ ، ص٦٩ ٢٩ مادة عصر ٠

((عنايته بالقراءات))

****

عني جميع المفسرين بذكر القراءات وتوجيهها في تفاسيرهم - مع تفاوتهم في مدى العناية بها - لصلتها الوثقى بالمعنى ولكون المتواتر منها قرآنا منزلا من عند الله تعالى ، ولبيان الشاذ من القراءات الذي خرج عن دائرة القرآنية سواء أكان شذوذه بسبب مخالفته لرسم المصاحف العثمانية أم بسبب مخالفته لوجوه اللغة العربية أم بسبب نقله بغير طريق التواتر .

والإمام الطبري شيخ المفسرين ورائدهم وأولهم الذي أهتم بذكر القراءات في تفسيره وتوجيهها وتنزيلها على المعاني المختلفة والموازنة بينها واختيار ماراقه منها ورد مالم يرقه بميزان علمي دقيق ، وقد حرص على ما أجمع عليه العلماء الحجة والتزم اتباع إجماعهم ، واليك أخي القارئ نماذج من تفسيره :

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ... الآية [(١)] يقول :

واختلف القراء في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الحجاز وبعض البصريين (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) بتشديد

---

(١) سورة المائدة /٨٩

القاف ، بمعنى: وكدتم الأيمان ورددتموها ،وقراء الكوفيين (بما عقدتم الأيمان) بتخفيف القاف ، بمعنى : أوجبتموها على أنفسكم وعزمت عليها قلوبكم .

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك : قراءة من قرأ بتخفيف القاف ، وذلك أن العرب لاتكاد تستعمل (فعلت) في الكلام إلا فيما يكون فيه تردد مرة بعد مرة ، مثل قولهم :" شددت على فلان في كذا " إذا كرر عليه الشد مرة بعد أخرى ، فإذا أرادوا الخبر عن فعل مرة واحدة قيل : " شددت عليه " بالتخفيف ، وقد أجمع الجميع لا خلاف بينهم أن اليمين التي تجب بالحنث فيها الكفارة تلزم بالحنث في حلف مرة واحدة وإن لم يكررها الحالف مرات ، وكان معلوما بذلك أن الله مؤاخذ الحالف العاقد قلبه على حلفه وإن لم يكرره ولم يردده وإذا كان ذلك كذلك لم يكن لتشديد القاف من (عقدتم) وجه مفهوم ، فتأويل الكلام إذن : لايؤاخذكم الله أيها المؤمنون من أيمانكم بمالغوتم فيه ولكن يؤاخذكم بما أوجبتموه على أنفسكم منها وعقدت عليه قلوبكم اهـ (١)

فترى أن الإمام الطبري ذكر قراءتين في كلمة " عقدتم " ووجه

---

(١) جامع البيان للطبري ج٧ ،ص ١٣

كلا منهما ، ثم اختار قراءة تخفيف القاف مستندا إلى ما ألفه العرب وتعودوه فى كلامهم وإلى اجماع الفقهاء على أن الكفارة تجب بالحنث فى الحلف ولو كان مرة واحدة ، فهو اختار القراءة التى يتأكد بها المعنى ويتقوى ، ويراها أنسب .

ونهج الطبرى هذا المنهج أعنى اختياره قراءة وتقديمها على غيرها مستندا إلى كلام العرب والى الإجماع فى آيات كثيرة كقوله تعالى :-

" ... ولاتقربوهن حتى يطهرن ..." الآية [(١)] ، وقوله سبحانه : ان الله ربى وربكم فاعبدوه ... الآية . [(٢)] ، وقوله جل ذكره : .... فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون . [(٣)]

وأحيانا يذكر الإمام الطبرى مافى الآية من قراءات مقبولة ثم يوجهها ويبين تساويها فى قوة المعنى والمكانة ، فليست إحداها بأولى من الأخرى ، فعند تفسيره قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا

---

(١) سورة البقرة / ٢٢٢

(٢) سورة آل عمران / ٥١

(٣) سورة التوبة / ١٢

الكتاب من قبلكم والكفار أولياء (١) يقول :

واختلف القراء في قراءة ذلك ، فقرأته جماعة من أهل الحجاز والبصرة والكوفة (والكفار أولياء) بخفض الكفار ، بمعنى : يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ومن الكفار أولياء ، وكذلك ذلك في قراءة أبي بن كعب ، فيما بلغنا ، من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار أولياء ·

وقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة والكوفة (والكفار أولياء) بالنصب : بمعنى : يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا والكفار ، عطفا بالكفار على الذين اتخذوا ·

والصواب من القول في ذلك أن يقال : إنهما قراءتان متفقتا المعنى : صحيحتا المخرج ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء ، فبأي ذلك قرأ القارئ فقد أصاب ، لأن النهي عن اتخاذ ولي من الكفار نهي عن اتخاذ جميعهم أولياء ، والنهي عن اتخاذ جميعهم أولياء نهي عن اتخاذ بعضهم وليا · وذلك أنه غير مشكل

---

(١) سورة المائدة /٥٧ واختياره لقراءة لايحط من شأن قراءة أخرى مادامت مقبولة ومتواترة لأن القراءات القرآنية المقبولة قرآن منزل من عند الله بالوحي·

على أحد من أهل الاسلام أن الله - تعالى ذكره - إذا حرم اتخاذ ولي من المشركين على المؤمنين أنه لم يبح لهم اتخاذ جميعهم أولياء ، ولا إذا حرم اتخاذ جميعهم أولياء أنه لم يخصص إباحة اتخاذ بعضهم وليا ، فيجب من أجل اشكال ذلك عليهم طلب الدليل على أولى القراءتين في ذلك بالصواب ، وإذ كان ذلك كذلك فسواء قرأ القارىء بالخفض أو بالنصب لما ذكرنا من العلة اهـ (١)

وسلك العلامة الطبرى هذا المسلك أعنى توجيه القراءتين وبيان تساويهما في قوة المعنى والمنزلة وإصابة القارىء بقراءته إحداهما عند تفسيره لآيات كثيرة كقوله تعالى : " ... إنه من عبادنا المخلصين " الآية (٢) ، وقوله جل ثناؤه : " فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ... الآية (٣) وقوله تعالى ذكره : حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا (٤)

ومن منهج الإمام الطبرى أنه يبين القراءة الشاذة ثم يردها

---

(١) جامع البيان للطبرى ، ج٦ ، ص٢٩٠ - ٢٩١

(٢) سورة يوسف عليه السلام / ٢٤

(٣) سورة الإسراء / ٧

(٤) سورة الكهف / ٩٣

ولايقبلها فمثلا عند تفسير قوله تعالى : إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١) يقول :

والذى هو أولى بتأويل الآية من القول : قول من قال : معناه " أكاد أخفيها من نفسي ، لأن تأويل أهل التأويل بذلك جاء ، والذى ذكر عن سعيد بن جبير من قراءة ذلك - أى أخفيها - بفتح الألف : قراءة لاأستجيز القراءة بها لخلافها قراءة الحجة التى لايجوز خلافها فيما جاءت به نقلا مستفيضا اهـ (٢)

وسار الإمام الطبرى على هذا الدرب فى تفسيره لآيات أخرى كقوله تعالى : ولسليمان الريح عاصفة الآية (٣) ٠

وغيرها من الآيات ، وهو درب حميد لأن القراءات الشاذة ذهبت عنها صفة القرآنية ، فهو يبينها للقارىء لئلا يقع فى لبس أو خلط ٠

وهكذا نرى أن العلامة ابن جرير اهتم كثيرا بذكر القراءات فى تفسيره ، وتوجيهها ، واهتمامه بذكرها شىء ضرورى لما سبق وأمر متوقع وغير مستبعد ولامستغرب عليه ، فقد تلقى القراءات

---

(١) سورة طه /١٥

(٢) جامع البيان للطبرى ج١٦ص١٥٠

(٣) سورة الأنبياء عليهم السلام /٨١

على شيوخ القراءات والإقراء ببغداد والكوفة والشام ومصر .

روى الحروف سماعا عن أبي كريب محمد بن العلاء ، وأحمد بن يوسف التغلبي ببغداد ، وعن العباس بن الوليد البيروتي المقرئ بالشام وبيروت ، ويونس بن عبد الأعلى الصدفي شيخ القراء بمصر ، وأخذ عنه قراءة حمزة بن حبيب الزيات وقراءة ورش ، وأخذ القراءة عرضا بالكوفة عن سليمان بن عبد الرحمن بن حماد الطلحي عن خلاد ابن خالد الشيباني الصيرفي الكوفي عن سليم بن عيسى الكوفي عن حمزة .

وروى عن ابن جرير الحروف كثيرون من تلاميذه (١)

وبلغ من حبه للقراءات وتبحره فيها واضطلاعه بها أن ألف فيها كتابه " الجامع " ويقع في ثمانية عشر مجلدا ، وكتابه الآخر " الفصل بين القراءات " ، واختار لنفسه قراءة لم يخرج بها عن المشهور .

وإلى جانب هذا كان حسن الصوت في قراءة القرآن حتى أن القرباء والبعداء كانوا يذهبون إلى المسجد الذي يصلي فيه للصلاة خلفه لاستماع قراءته المرتلة المتقنة ، ومنهم أبو بكر

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ، ج٢ ص١٠٧ ، وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص١١٠ .

ابن مجاهد - وهو من تلاميذه - أخر صلاة التراويح في مسجده وذهب إلى المسجد الذي كان يصلي فيه ابن جرير شيخه ويؤم الناس فاستمع اليه طويلا وهو يقرأ سورة الرحمن ، ثم قال ابن مجاهد لمن معه : ماظننت ان الله تعالى خلق بشرا يحسن يقرأ هذه القراءة .(١)

وكان الإمام ابو جعفر يعجبه من يضم إلى قراءة القرآن العلم بتفسيره ، ويتعجب ممن يقرأه ولاعلم عنده به ، حتى ورد عنه أنه قال :

" إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته"(٢)

وبما تقدم تعلم أن الإمام الطبري أسهم في علم القراءات ، إسهاما كبيرا ، وكان له فيه باع طويل وقدح معلى ، ووصل في ذلك العلم إلى ذروته ، وتربع على قمته ، وقد حظي تفسيره من القراءات بالحظ الأكبر والنصيب الأوفر .

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٢ ، ص ١٦٤ وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص ١١٠

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ، ص٦٣

((حفاوته بالمذاهب النحوية))

***

وكثيرا مايعنى الإمام الطبرى فى تفسيره بذكر آراء النحاة من الكوفيين والبصريين فى النحو والصرف ، ويوجه الأقوال ويبين المعانى وفق أوجه الإعراب ، ويختار من الآراء مايواكب طريقة العرب المعروفة المألوفة فى تعبيراتهم ولو أدى ذلك إلى مخالفة نحاة الكوفة أو البصرة فى آرائهم .

وهو حين يتعرض للمسائل النحوية لايقيد نفسه بمذهب معين ، ولايشغل باله ولايصرف ذهنه إلى تفريعات النحو ودقائقه فلتلك ميدانها الخاص بها ، وإنما يأخذ من النحو القدر الذى تدعو اليه الضرورة وتمس إليه الحاجة فى تفسير الآية وبيان معناها وتوضيح ترابط ألفاظها ومبانيها ، وتماسك معانيها .

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : وماكان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا .. الآية (١) يذكر أقوال بعض نحاة الكوفة والبصرة فى إعراب قوله (كتابا) وبيان ناصبه ويعقب بالرأى الذى يراه ويختاره فيقول :

وقد اختلف أهل العربية فى معنى الناصب قوله (كتابا

---

(١) سورة آل عمران /١٤٥

مؤجلا) : فقال بعض نحويي البصرة : هو توكيد ، ونصبه على: كتب الله كتابا مؤجلا ، قال : وكذلك كل شيء في القرآن من قوله : حقا ، إنما هو: أحق ذلك حقا ، وكذلك : وعد الله[1] ، و(رحمة من ربك "[2] وصنع الله الذي أتقن كل شيء "[3] وكتاب الله عليكم[4] : إنما هو صنع الله هكذا صنعا ، فهكذا تفسير كل شيء في القرآن من نحو هذا ، فإنه كثير ٠

وقال بعض نحويي الكوفة : (وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) معناه : كتب الله آجال النفوس ، ثم قيل : كتابا مؤجلا فأخرج قوله : كتابا مؤجلا : نصبا من المعنى الذى في الكلام ، إذ كان قوله (وماكان لنفس أن تموت إلا باذن الله) قد أدى عن معناه كتب ، قال : وكذلك سائر مافي القرآن من نظائر ذلك فهو على هذا النحو ٠

وقال آخرون منهم : قول القائل : زيد قائم حقا " بمعنى أقول زيد قائم حقا ، لأن كل كلام قول ، فأدى المقول عن القول ثم خرج مابعده منه ، كما تقول : أقول قولا حقا ، وكذلك : ظنا ويقينا ، وكذلك : وعد الله ، وماأشبهه ٠

---

(١) سورة الروم ٦ (٢) سورة الكهف /٨٢

(٣) سورة النمل / ٨٨ (٤) سورة النساء /٢٤

والصواب من القول في ذلك عندي : أن كل ذلك منصوب على المصدر من معنى الكلام الذي قبله ، لأن في كل ماقبل المصادر التي هي مخالفة ألفاظها ألفاظ ماقبلها من الكلام معاني ألفاظ المصادر وأن خالفها في اللفظ ، فنصبها من معاني ماقبلها دون ألفاظه أهـ[1] .

وفي خلال تفسيره لقوله تعالى : قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم .. الآية[2] . يعرض لأقوال بعض النحاة الكوفيين والبصريين في إعراب (من) في قوله (إلا من رحم) ، ويرفض آراءهم لما فيها من التكلف ، والإغراب والبعد عن الأفصح المشهور من كلام العرب ، وإلى القارئ كلامه في هذا الموضع :

وقد اختلف أهل العربية في موضع (من) في هذا الموضع : فقال بعض نحويي الكوفة : هو في موضع نصب لأن المعصوم بخلاف العاصم ، والمرحوم معصوم ، قال : كأن نصبه بمنزلة قوله :(مالهم به من علم إلا اتباع الظن)[3] قال : ومن استجاز اتباع الظن والرفع

---

(١) جامع البيان للطبري ج٤ ، ص١١٥

(٢) سورة هود عليه السلام /٤٣

(٣) سورة النساء / ١٥٧

فى قولـــــه :

وبلدة ليس بهـا أنيس *** إلا اليعافير وإلا العيس (١)

لم يجزله الرفع فى (من) ، لأن الذى قال : (إلا اليعافيـــر)

جعل أنيس البر اليعافير وماأشبهـا ، وكذلك قوله : إلا اتبـاع

الظن ، يقول : علمهم ظن ، قال : وأنت لايجوز لك فى وجـه أن

تقول : المعصوم هو عاصم فى حال ، ولكن لوجعلت العاصم فـــى

تأويل معصوم : لامعصوم اليوم من أمر الله " لجاز رفع (من) ،

قال : ولا ينكر أن يخرج المفعول على فاعل ، ألا ترى قوله : مـن

ماء دافـق (٢) معناه والله أعلم : مدفوق ، وقوله :فى عيشة راضية (٣)

معناها : مرضية ، قال الشاعر (٤) :

دع المكارم لاترحل لبغيتها ** واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ومعناه المكســو .

---

(١) البيت لعامر بن الحارث وشهرته جران العود الميرى ، وهـو من شواهد النحاة على أن الاستثناء فى البيت منقطـــع لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه ، واليعافير جمـع يعفور بضم الياء وفتحها وهو الظبى الأعفر أى لونه لـــون التراب ، والعيس : الإبل البيض .

(٢) سورة الطارق /٦

(٣) سورة الحاقة / ٢١

(٤) هو الحطيئة وانظر البيت فى ديوانه ص١٠٨ .

وقال بعض نحويي البصرة : " لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم " على : لكن من رحم : ويجوز أن يكون على : إلا ذا عصمة أي معصوم ، ويكون (إلا من رحم) رفعا ، بدلا من العاصم .

ولاوجه لهذه الأقوال التي حكيناها عن هؤلاء لأن كلام الله تعالى إنما يوجه إلى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه ما وجد الى ذلك سبيل : ولم يضطرنا شيء إلى أن نجعل عاصما في معنى معصوم ، ولا أن نجعل (الا) بمعنى : لكن ، إذ كنا نجد لذلك في معناه الذي هو معناه في المشهور من كلام العرب مخرجا صحيحا وهو ماقلنا من أن معنى ذلك :

قال نوح : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمنا فأنجانا من عذابه ، كما يقال : لامنجي اليوم من عذاب الله إلا الله ، ولامطعم اليوم من طعام زيد إلا زيد ، فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم اهـ (١) .

وكما يعنى الإمام الطبري في تفسيره بالمذاهب النحوية يعنى بالصرف ، وبين النحو والصرف علاقة وطيدة ، فهما شقيقان بل توأم ، كل منهما يكمل الآخر ويزينه فمثلا عند تفسير قوله تعالى : أوكالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ... الآية (٢) نجده يتكلم عن كلمتي (خاوية وعروش) ويبين معناهما

(١) جامع البيان للطبري ج١٢ ص٤٥-٤٦ .   (٢) سورة البقرة ٢٥٩ .

واشتقاقاتهما وتصريفاتهما فيقول :

" يعني تعالى ذكره بقوله (وهي خاوية) : وهي خالية من أهلها وسكانها ، يقال من ذلك : خوت الدار ، تخوى خواء وخويا ، وقد يقال للقرية : خويت ، والأول أعرب وأفصح ، و أما في المرأة إذا كانت نفساء فإنه يقال : خويت تخوى خوى ، منقوصا ، وقد يقال فيها : خوت تخوى ، كما يقال في الدار ، وكذلك : خوى الجوف يخوى خواء شديدا ، ولو قيل في الجوف ماقيل في الدار ، وفي الدار ماقيل في الجوف ، كان صوابا ، غير أن الفصيح ماذكرت.

وأما العروش فإنها : الأبنية والبيوت ، واحدها : عرش وجمع قليله : أعرش ، وكل بناء فإنه : عرش ، ويقال : عرش فلان يعرش ويعرش ، وعرش تعريشا ، ومنه قول الله تعالى ذكره : وماكانوا يعرشون (١) يعني :يبنون ،ومنه قيل :عريش مكة : يعني به : خيامها وأبنيتها اهـ (٢)

وهكذا نجد العلامة الطبري يكثر من المسائل النحوية واللغوية في تفسيره ، ويعالجها ويدلي بدلوه فيهما إدلاء المتخصص المتبحر في علوم اللغة ، ومما ساعده على ذلك : ثقافته

---

(١) سورة الأعراف /١٢٧

(٢) جامع البيان للطبري ج٣ ، ص٣١

الواسعة وتبحره فى فنون العلم والمعرفة ، وذلك التراث اللغوى الهائل الذى كان بين يديه نتيجة قرائح أهل اللغة السابقين عليه البعيدين عنه والقريبين منه .

وصار الطبرى بتمكنه فى اللغة من اللغويين المعتد بهم والمعول عليهم ، وفى مستوى أهلها ومكانة أربابها وفرسانها إن لم يفق بعضهم ويتميز عليهم .

وصارت البحوث اللغوية المتعددة المتنوعة التى حواها تفسيره الضخم كنزا ثمينا ، ودررا بهية فى بابها ، ومرجعا مهما فى ميدانها ، مما أكسب الكتاب وصاحبه شهرة عظيمة فائقة ومكانة كريمة لائقة ، وقد شهد له شيخه ثعلب بالقوة والتفرد فى اللغة ، كما شهد له تلميذه عبد العزيز بن محمد الطبرى بأنه كان عظيما فى علم اللغة والنحو .

وقال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد غلام ثعلب ت٣٤٥هـ عن تفسير الطبرى :

قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره فما وجدت فيه حرفا خطأ فى نحو أو لغة اهـ (١)

وهو قول شاهد عدل لما تقدم .

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٦٢

((عنايتـه بذكر أقوال أهل اللغـة))

****

ويهتم الإمام الطبرى بذكر أقوال أهل اللغة وأصحاب المعانى كالفراء أبى زكريا يحيى بن زياد وأبى إسحق الزجاج وأبى عبيدة معمر بن المثنى، ويقر مايراه صوابا من أقوالهم ، ويناقش مايراه منها حائدا عن الصواب ، وهو يناقش من يناقشه فى موضوعية علمية ، وبأدب جم ، وعفة لسان ، وطهارة جنان ، حتى إنه لايصرح غالبا باسم من يناقشه ، لأن الذى يعنيه هو رأيه ، ويعرف اسم من يناقشه من قوله ورأيه الموجود فى أحد كتبه ، أو المنقول عنه فى كتاب ما ٠

ومن منهج الإمام الطبرى أنه يقدم رأى المفسرين على رأى اللغويين ويختاره ويرجحه عند التعارض والتدافع وتكلف الجمع بينهما لأنه يعتبر القرآن الكريم ميدان اختصاص أهل التفسير المعتمدين على الروايات النقلية التفسيرية ، فلا يليق أن يتقدم على رأيهم رأى أهل اللغة لما فى لغة العرب من سعة ومرونة وكثرة معان ووفرة احتمالات فى الكلمة الواحدة ، ولذا يصف فى تفسيره أبا عبيدة كثيرا بضعفه فى معرفة تأويل أهل التأويل ٠

والى القارىء الكريم نماذج لمناقشته لأهل اللغة وأرباب المعانى :

عند تفسير قوله تعالى : مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ٠٠٠ الآية [(١)] يقول :

وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن الذى فى قوله (كمثل الذى استوقد نارا) بمعنى الذين ، كما قال جل ثناؤه : والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون [(٢)] ، وكما قال الشاعر :

فإن الذى حانت بفلج دماؤهم *** هم القوم كل القوم يا أم خالد

قال أبو جعفر : والقول الأول هو القول لما وصفنا من العلة [(٣)] وقد أغفل قائل ذلك فرق مابين الذى فى الآيتين وفى البيت لأن الذى فى قوله (والذى جاء بالصدق) قد جاءت الدلالة على أن معناها الجمع ، وهو قوله (أولئك هم المتقون) ، وكذلك (الذى) فى البيت وهو قوله (دماؤهم) ، وليست هذه الدلالة فى قوله (كمثل الذى استوقد نارا) فذلك فرق مابين (الذى) فى قوله

---

(١) سورة البقرة /١٧

(٢) سورة الزمر / ٣٣

(٣) أى (الذى) فى الآية اسم موصول فى موضعه ، وهو صفة للاستضاءة أى مثل استضاءة المنافقين كمثل استضاءة الموقد نارا ٠

(كمثل الذى استوقد نارا) وسائر شواهده التى استشهد بها على أن معنى (الذى) فى قوله (كمثل الذى استوقد نارا) بمعنى الجماعة ، وغير جائز لأحد نقل الكلمة التى هى الأغلب فى استعمال العرب على معنى إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها اهـ [١]

وفى خلال تفسير قوله جل شأنه : وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها .. الآية .[٢] يقول فى معنى (وأتوا به متشابها) :

وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى قوله (وأتوا به متشابها) أنه متشابه فى الفضل أى كل واحد منه له من الفضل فى نحوه مثل الذى للآخر فى نحوه.

قال أبو جعفر : وليس هذا قولا نستجيز التشاغل بالدلالة على فساده لخروجه عن قول جميع علماء أهل التأويل ، وحسب قول بخروجه عن قول أهل العلم دلالة على خطئه اهـ [٣]

---

(١) جامع البيان للطبرى ج١ ص١٤١

(٢) سورة البقرة /٢٥

(٣) جامع البيان للطبرى ج١ ص١٧٢

فترى أنه يرد ماقاله بعض أهل اللغة لمعارضته ماقاله علماء التفسير ، ويقدم قول المفسرين المجمع عليه على قول بعض اللغويين .

وفى أثناء تفسير قوله: لاتسمع فيها لاغية [١] يقول :

لاتسمع هذه الوجوه ، المعنى : لأهلها (فيها) فى الجنة العالية . لاغية : يعنى باللاغية : كلمة لغو ، واللغو : الباطل فقيل للكلمة التى هى لغو ، لاغية ، كما قيل لصاحب الدرع : دارع ولصاحب الفرس : فارسى ، ولقائل الشعر : شاعر ، وكما قال الحطيئة :

أغررتنى وزعمت أن ** سك لابن بالصيف تامر

يعنى صاحب لبن ، وصاحب تمر .

وزعم بعض الكوفيين أن معنى ذلك : لاتسمع فيها حالفة على الكذب ، ولذلك قيل : لاغية .

قال العلامة أبو جعفر معقبا : ولهذا الذى قاله مذهب ووجه لولا أن أهل التأويل من الصحابة والتابعين على خلافه ، وغير جائز

---

(١) سورة الغاشية /١١

لأحد خلافهم فيما كانوا عليه مجمعين اهـ [(١)]

وهكذا نرى أن الإمام الطبري يعنى بعرض أقوال نفر من أهـــل اللغة ، ويناقش ماينبغي مناقشته ، ويقبل مايرتقه في ضوء منهج معين محدد مرسوم ، وكل هدفه وبغيته من ذكر البحوث اللغوية ومناقشة أهل اللغة الوصول الى لب الآية وبيان معناها وفحواهـا في ضوء استعمالات العرب والإلف اللغوي عندهم ، والوقـوف بالقارىء على الصواب ، لااتباع الهوى والتجني على أحد .

ولم تكن البحوث اللغوية المذكورة في تفسيره مقصـودة ولامستهدفة لذاتها ، ولامجرد حشو في كتابه ، وإنما كتبهـا ودونها لما تقدم .

((استشهاده بالشعر العربـي))

****

وكثيرا مايستشهد الإمام الطبري في تفسيره بأبيات من الشعر العربي القديم الأصيل لمعنى من المعاني ، وسبقه إلى هذا المنحى أب التفسير ورائد المفسرين منذ القرن الأول الهجري حبر الأمـة

---

(١) جامع البيان للطبري ج٣٠ ، ص١٦٣ ولعله يعني ببعض الكوفيين الفراء وانظر البيت في ديوان الحطيئة ص٣٢

وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وبعض الصحابة والتابعين، سبقوه في الاحتجاج لتفسير غريب القرآن ومشكله وغامضه بأبيات من الشعر، ولاريب أن الشعر العربي الأصيل ديوان العرب ومرجعهم، وفيه بيان لما خفي عليهم في كتابهم كما أثر عن ابن عباس، وغيره رضي الله تعالى عنهم.(١)

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: "الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون"(٢) يتكلم عن معنى السماء وسبب تسميتها، وعن معنى الأنداد، ويستشهد على ماقال بأبيات من الشعر والى القارئ كلامه في ذلك:

وإنما سميت السماء سماء لعلوها على الأرض وعلى سكانها من خلقه، وكل شيء كان فوق شيء آخر فهو لماتحته سماء، ولذلك قيل لسقف البيت سماؤه لأنه فوقه مرتفع عليه، ولذلك قيل: سما فلان لفلان: إذا أشرف له وقصد نحوه عاليا عليه، كما قال

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج١، ص١١٩ -١٢٠

(٢) سورة البقرة ٢٢

الفـــرزدق :(١)

سمونا لنجـران اليمانى وأهله *** ونجران أرض لم تديث مقاوله

وكما قال نابغة بنى ذبيـان(٢)

سمت لى نظرةٌ فرأيت منهـا *** تحيت الخدر واضعة القـــرام

يريد بذلك : أشرفت لى نظرة وبدت ، فكذلك السماء ، سميـت للأرض سماء لعلوها وإشرافها عليها .. . . . .

والأنداد : جمع نـد ، والند : العدل والمثل ، كما قال حسـان ابن ثابت - رضى الله تعالى عنه -(٣)

أتهجوه ولست له بنـــد ** فشركما لخيركما الفـــداء

يعنى بقوله : ولست له بند : لست له بمثل ولاعدل ، وكـــل شئ

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ج٢ ص١٦٩ . ونجران : أُرض بين مكـــة واليمن ، وتديث أي تذلل ، مقاوله أي ملوكه ، يريد أن يقـــول إننا قصدنا موضع نجران وأهله لأن نجران أرض طيبة عزيـــزة غالبة لم يضم ملوكها وحكامها ولم يذلوا قط .

(٢) انظر ديوان النابغة الذيبانى ص٩٢ . وتحيت : تصغير تحـت والقرام : الستر الرقيق .

(٣) انظر ديوان حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه ص٧٦ ، وحسان يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قبل إسلامه لأنـــه هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان نظيرا لشئ وشبيها فهو له ند اهـ (٢) .

وفي أثناء تفسير قوله تعالى :" الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون " (٢) يتحدث الإمام أبو جعفر عن معنى الظن والمراد به في الآية ويستشهد على ما قال بالشعر العربي وإليك قوله :

إن قال لنا قائل : وكيف أخبر الله - جل ثناؤه - عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه ، والظن : شك ، والشاك في لقاء الله عندك بالله كافر ؟

قيل له : إن العرب قد تسمي اليقين ظنا ، والشك ظنا ، نظير تسميتهم الظلمة سدفة ، والضياء سدفة ، والمغيث صارخا والمستغيث صارخا ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمي بها الشيء وضده ، ومما يدل على أنه يسمى به اليقين قول دريد بن الصمة (٣) .

---

(١) جامع البيان للطبري ج١ ، ص١٦٢ -١٦٣

(٢) سورة البقرة /٤٦

(٣) انظر ديوان دريد بن الصمة الجشمي ص ٤٧

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ** سراتهم في الفارسي المسرد

يعني بذلك : تيقنوا ألفي مدجج تأتيكم ، وقول عميرة بن طارق:

بأن يعتزوا قومي وأقعد فيكم ** وأجعل مني الظن غيبا مرجما

يعني : وأجعل مني اليقين غيبا مرجما .

والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصى ، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية اهـ (١)

وعند تفسير قوله تعالى : وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم (٢) يتكلم أبو جعفر عن أصل معنى العصم والاعتصام ويستدل على ماقال بالشعر وأسوق إلى القارىء الكريم كلامه في ذلك :

" ... وأصل العصم : المنع ، فكل مانع شيئا فهو عاصمه ، والممتنع به معتصم به ، ومنهقول الفرزدق :

أنا ابن العاصمين بني تميم ** إذا ماأعظم الحدثان نابا (٣)

---

(١) جامع البيان للطبري ج١ ص٢٦٢

(٢) سورة آل عمران ١٠١

(٣) انظر ديوان الفرزدق ج١ ورقم البيت ١١٥

ولذلك قيل للحبل : عصام ، وللسبب الذى يتسبب به الرجل الى حاجته : عصام ، ومنه قول الأعشى :

إلى المرء قيس أطيل السرى ** وآخذ من كل حى عصم (١)

يعنى بالعصم : الأسباب ، أسباب الذمة والأمان ، يقال منه : اعتصمت بحبل من فلان ، واعتصمت حبلا منه ، واعتصمت به واعتصمته ، وأفصح اللغتين : إدخال الباء كما قال عز وجل (واعتصموا بحبل الله جميعا) (٢) ، وقد جاء اعتصمته كما قال الشاعر :

إذا أنت جازيت الإخاء بمثله ** وآسيتنى ثم اعتصمت حباليا (٣)

فقال : اعتصمت حباليا ، ولم يدخل الباء ، وذلك نظير قولهم تناولت الخطام ، وتناولت بالخطام ، وتعلقت به ، وتعلقته ، كما قال الشاعر :

تعلقت هندا ناشئا ذات مئزر

وأنت وقد فارقت لم تدر ما الحلم (٤)

---

(١) انظر ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ص٨٧
(٢) سورة آل عمران ١٠٣
(٣) انظر معانى القرآن للفراء ج١ ص٢٢٨
(٤) انظر المرجع السابق فى نفس الموضع.

فترى أن ابن جرير تكلم عن أصل معنى العصم والاعتصام وإطلاقاته وتعديه بالباء وبدونها واستشهد على ماقال بالشعر .

وليس هذا السملك بمستغرب على ابن جرير فقد كان شاعرا وذا دراية بالشعر وقارئا لشعر الشعراء علما به ، قال أبو عمر الزاهد : سمعت ثعلبا يقول : قرأ على أبو جعفر شعر الشعراء قبل أن يكثر الناس ، وقال ثعلب شيخه في حقه : إنه من حذاق النحاة الكوفيين .

قال أبو بكر بن مجاهد : وكان أبو العباس - يعني ثعلبا - قليل الشهادة لأحد بالحذق في علمه (١)

((احتكامه الى ظاهر التنزيل))

****

ويحتكم الإمام أبو جعفر في الرأى الذى يختاره والمعنى الذى يستحسنه إلى ظاهر القرآن الكريم إن لم يكن معه حجة قوية ودليل موثوق به يهديه إلى المعنى الصحيح والرأى القويم ، وقد قال أثناء تفسيره لقوله تعالى : والمطلقات يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء ... الآية (٢) :

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ ص٦٠

(٢) سورة البقرة ٢٢٨

" ... إن الحكم عندنا في كل ما أنزله الله في كتابه على ما احتمله ظاهر التنزيل ، مالم يبين الله - تعالى ذكره - لعباده أن مراده منه الخصوص ، إما بتنزيل في كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا خص منه البعض كان الذي خص من ذلك غير داخل في الجملة التي أوجب الحكم بها ، وكان سائرها على عمومها ، كما قد بينا في كتابنا : كتاب (لطيف القول من البيان عن أصول الأحكام) " وغيره من كتبنا " اهـ .(١)

وأثناء تفسيره لقوله تعالى : وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ... الآية (٢) يقول :

" .... قال بعضهم : معنى ذلك : كذلك يريهم الله أعمالهم التي فرضها عليهم في الدنيا فضيعوها ولم يعملوا بها حتى استوجب ماكان الله أعد لهم لو كانوا عملوا بها في حياتهم من المساكن والنعم غيرهم بطاعته ربه ، فصار مافاتهم من الثواب الذي كان الله أعده لهم عنده لوكانوا أطاعوه في الدنيا

(١) جامع البيان للطبري ج٢ ص٤٤٥
(٢) سورة البقرة ١٦٧

إذا عاينوه عند دخول النار أو قبل ذلك أسى وندامة وحسرة عليهم

ذكر من قال ذلك :

حدثني موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (١) (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) زعم أنه يرفع لهم الجنة ، فينظرون اليها وإلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا الله ، فيقال لهم : تلك مساكنكم لو أطعتم الله ، ثم تقسم بين المؤمنين ، فيرثونهم ، فذلك حين يندمون ....

وقال آخرون : كذلك يريهم الله أعمالهم السيئة حسرات عليهم : لم عملوها ؟ وهلا عملوا بغيرها مما يرضى الله تعالى ذكره ؟ ....

ثم قال أبو جعفر بعد ذكره للروايات المتعلقة بالقولين السابقين :

وأولى التأويلين بالآية تأويل من قال : معنى قوله (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) :

كذلك يرى الله الكافرين أعمالهم الخبيثة حسرات

---

(١) هو محمد بن كروان الكوفى ، وهو السدى الصغير صاحب محمد ابن السائب الكلبى ، انهم بالكذب وعدم الثقة ، وترك العلماء حديثه ولم يحتجوا به وقال ابن عدى : الضعف على روايته بين وهو السدى الكبير اسماعيل بن عبد الرحمن انظر ميزء الاعتدال للذهبى ج٤/٣٢/٣٣ وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٩/٣٨٧ .

عليهم ، لم عملوا بها ، وهلا عملوا بغيرها ، فندموا على مافرط منهم من أعمالهم الرديئة إذا رأوا جزاءها من الله وعقابها لأن الله أخبر أنه يريهم أعمالهم ندما عليهم ، فالذى هو أولى بتأويل الآية مادل عليه الظاهر ، دون ما احتمله الباطن الذى لادلالة له على أنه المعنى بها ، والذى قال السدى فى ذلك وإن كان مذهبا تحتمله الآية فإنه منزع بعيد ، ولا أثر بأن ذلك كما ذكر تقوم له حجة فيسلم لها ، ولادلالة فى ظاهر الآية أنه المراد بها ، فإذا كان الأمر كذلك لم يحل ظاهر التنزيل إلى باطن تأويل اهـ (١)

وعند تفسير قوله تعالى : لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ...... الآية (٢) يقول فى بيان المراد بالكسوة :

" .... واختلف أهل التأويل فى الكسوة التى عنى الله بقوله : (أوكسوتهم) :

---

(١) جامع البيان للطبرى ج٢ ص٧٤ -٧٥
(٢) سورة المائدة ٨٩

فقال بعضهم : عنى بذلك كسوة ثوب واحد ...

وقال بعضهم: عنى بذلك : الكسوة ثوبين ثوبين ....

وقال آخرون : بل عنى بذلك : كسوتهم : ثوب جامع كالملحفة ، والكساء ، والشيء الذي يصلح للبس والنوم ...

وقال آخرون : عنى بذلك كسوة : إزار ورداء وقميص ...

وقال آخرون : كل ماكسا فيجزى ، والآية على عمومها ...

ثم قال أبو جعفر بعد ذكره للأقوال السابقة برواياتها :

" وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة ، وأشبهها بتأويل القرآن قول من قول : عنى بقوله (أو كسوتهم) : ماوقع عليه اسم كسوة مما يكون ثوبا فصاعدا ، لأن مادون الثوب لاخلاف بين جميع الحجة أنه ليس مما دخل في حكم الآية ، فكان مادون قدر ذلك خارجا من أن يكون الله تعالى عناه ~~النقل~~ المستفيض ، والثوب ومافوقه داخل في حكم الآية إذ لم يأت من الله تعالى وحى ، ولامن رسوله صلى الله عليه وسلم خبر ، ولم يكن من الأمة إجماع بأنه غير داخل في حكمها ، وغير جائز إخراج ماكان ظاهر الآية محتمله من حكم الآية إلا بحجة يجب التسليم لها ، ولاحجة بذلك اهـ (١)

فترى أن الإمام الطبري يحتكم إلى ظاهر التنزيل ويأخذ به فيما يذهب اليه ويختاره .

---

(١) جامع البيان للطبري ج٧ ، ص٢٣ - ٢٦

أما إذا ورد حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين المراد بالآية فإن الطبري يتخلى عن الأخذ بالظاهر ويأخذ بالحديث ويقدمه ٠

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ٠٠٠ الآية (١) يقول :

" وأما قوله (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فإن في تأويله وفيما عنى به اختلافا بين أهل التأويل :

فقال بعضهم : عنى الله تعالى ذكره بذلك الدلالة على اللازم للأزواج المطلقات اثنتين بعد مراجعتهم اياهن من التطليقة الثانية من عشرتهن بالمعروف أو فراقهن بطلاق ٠

ذكر من قال ذلك ٠٠٠٠٠٠

حدثني أبو السائب ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن سميع ، عن أبي رزين قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يارسول الله ، أرأيت قوله (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فأين الثالثة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) هي الثالثة ٠٠٠٠٠٠
٠٠

---

(١) سورة البقرة /٢٢٩

وقال آخرون منهم : بل عنى الله بذلك الدلالة على مايلزمهم لهن بعد التطليقة الثانية من مراجعة بمعروف أو تسريح بإحسان بترك رجعتهن حتى تنقضي عدتهن فيصرن أملك لأنفسهن

وأنكروا قول الأولين الذين قالوا : إنه دليل على التطليقة الثالثة ٠

ذكر من قال ذلك :

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى في قوله (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) إذا طلق واحدة أو اثنتين إما أن يمسك ، ويمسك : يراجع بمعروف ، وإما سكت عنها حتى تنقضي عدتها فتكون أحق بنفسها ٠

حدثنا على بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المحاربي ، عن جويبر ، عن الضحاك [1] : (أو تسريح بإحسان) والتسريح أن يدعها حتى

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي المفسر ، لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما وانما لقى سعيد بن جبير فأخذ عنه التفسير ، وثقه في الرواية أحمد وابن معين وأبو زرعة وابن حبان وقال يحيى بن سعيد : هو ضعيف عندنا ، وقال ابن عدى : إنه عرف بالتفسير أما رواياته عن ابن عباس وغيره من الصحابة ففيها نظر ت١٠٥ هـ انظر ميزان الاعتدال للذهبي ج٢ص٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٤ ص٣٩٧ـ٣٩٨ والخلاصة للخزرجي ص١٧٧ ٠

تمضى عدتها ٠

حدثنا يحيى بن أبى طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) قال : يعنى تطليقتين بينهما مراجعة ، فأمر أن يمسك أو يسرح بإحسان ، قال : فإن هو طلقها ثالثة : فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ٠

وكأن قائلى هذا القول الذى ذكرناه عن السدى والضحاك ذهبوا إلى أن معنى الكلام : الطلاق مرتان فإمساك فى كل واحدة منهما لهن بمعروف أو تسريح لهن بإحسان ، وهذا مذهب مما يحتمله ظاهر التنزيل لولا الخبر الذى ذكرته عن النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى رواه إسماعيل بن سميع عن أبى رزين ، فإن اتباع الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بنا من غيره ، فإذا كان ذلك هو الواجب ، فبين أن تأويل الآية :

الطلاق الذى لأزواج النساء على نسائهم فيه الرجعة مرتان ثم الأمر بعد ذلك إذا راجعوهن فى الثانية : إما إمساك بمعروف وإما تسريح منهم لهن بإحسان بالتطليقة الثالثة حتى يبين منهم فتبطل ماكان لهم عليهن من الرجعة ، ويصرن أملك لأنفسهن منهم اهـ (١)

---

(١) جامع البيان للطبرى ج٢ ، ص٤٥٨ - ٤٥٩

فترى أن الطبرى لم يأخذ فى هذه المسألة بظاهر القرآن ، ورد قول السدى والضحاك ومن قال قولهما مستدلا بحديث معتمد مقدما له على ظاهر الآية الكريمة ٠

وهذا المنحى وهو الاحتكام إلى ظاهر التنزيل إذا دعت اليه الحال بسبب تعدد الاحتمالات وعدم وجود دليل يعتمد عليه منحى عظيم ، والظاهر أن الامام الطبرى تأثر فى هذا المنحى بمسلك ومنهج شيخه داود بن على الأصبهانى صاحب المذهب الظاهرى ٠

((احتكامه إلى المشهور المعروف من كلام العرب))

****

والإمام الطبرى إلى جانب اهتمامه بالمأثور ورجوعه إليه وعنايته به يهتم بالاستعمالات اللغوية ، وإذا ماوجد نصا ذا معان لغوية متعددة وليس معه خبر ولا إجماع على معنى أخذ بالمعنى اللغوى القريب الواضح المشهور المعروف من كلام العرب ، وترك المعنى اللغوى الخفى البعيد ، فهو يحتكم فى اختياراته اللغوية فى تفسير بعض الألفاظ القرآنية وترجيح بعض المعانى على بعض إلى المشهور المعروف المألوف من كلام

العرب ، أي يأخذ بظاهر دلالات الألفاظ اللغوية وأشهرها .

فمثلا في خلال تفسيره لقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (١) يقول بعد عرضه الأقوال براوياتها : وأولى التأويلات بتأويل الآية قول من قال في ذلك (يا أيها الذين آمنوا) : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، اصبروا على دينكم وطاعة ربكم ، وذلك أن الله لم يخصص من معاني الصبر على الدين والطاعة شيئا ، فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل ، فلذلك قلنا إنه عنى بقوله (اصبروا) الأمر بالصبر على جميع معاني طاعة الله فيما أمر ونهى ، صعبها وشديدها ، وسهلها وخفيفها ، (وصابروا) يعني : وصابروا أعداءكم من المشركين .

وانما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين ، أو اثنين فصاعدا ، ولاتكون من واحد إلا قليلا في أحرف معدودة ، وإذ كان ذلك كذلك فانما أمر المؤمنون أن يصابروا غيرهم من أعدائهم حتى يظفرهم الله بهم ، ويعلي كلمته ويخزي أعداءهم ، وإلايكن عدوهم أصبر منهم .

وكذلك قوله (ورابطوا) معناه : ورابطوا أعداءكم وأعداء

---

(١) سورة آل عمران / ٢٠٠

دينكم من أهل الشرك في سبيل الله ، وأرى أن أصل الرباط : ارتباط الخيل للعدو ، كما ارتبط عدوهم لهم خيلهم ، ثم استعمل ذلك في كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه من أراده من أعدائهم بسوء ويحمي عنهم من بينه وبينهم ممن بغاهم بشر ، كان ذا خيل قد ارتبطها أو ذا رجلة لامركب له.

وإنما قلنا : معنى (ورابطوا) : ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم : لأن ذلك هو المعنى المعروف من معاني الرباط ، وإنما توجه الكلام إلى الأغلب المعروف في استعمال الناس من معانيه دون الخفي حتى يأتي بخلاف ذلك مايوجب صرفه الى الخفي من معانيه حجة يجب التسليم لها من كتاب أو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو إجماع من أهل التأويل اهـ (١) .

وعند تفسير قوله تعالى : حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ... الآية (٢) نجد بعض الأقوال عن السلف برواياتها في معنى (التنور) : فمنهم من قال : إنه وجه الأرض ، ومن قال : تنوير الصبح من قولهم : نور الصبح تنويرا ، ومن قال : إنه أعلى الأرض وأشرفها ، ومن قال

---

(١) جامع البيان للطبري ج٤ ص٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) سورة هود عليه السلام ٤٠

إنه مايختبز فيــه .

ثم يقول أبو جعفر معقبــا :

" وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله (التنور) : قول مـــن قال : هو التنور الذي يختبز فيه ، لأن ذلك هو المعروف من كــلام العرب ، وكلام الله لايوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عنـد العرب إلا أن تقوم حجتهم على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لهـــا وذلك أن الله جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهـــم معنى ماخاطبهم به " اهـ (١)

وقد قرر الإمام العلامة أبو جعفر هذا المعنى وركز عليه فـــي تفسيره في أكثر من موضع فقال في مقدمة تفسيره:

الواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لمعاني كلام العرب موافقة ، وظاهره لظاهـــر كلامها ملائما ، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بهـــا سائر الكلام والبيان (٢)

وقال عند تفسير قوله تعالى : إن الساعة آتية أكاد أخفيهـــا لتجزى كل نفس بما تسعى (٣) :

---

(١) جامع البيان للطبري ج١٢ ص٣٨ - ٤٠

(٢) جامع البيان للطبري ج١ ص٧

(٣) سورة طه / ١٥

إن الله تعالى ذكره خاطب بالقرآن العرب على مايعرفونه من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم ... وغير جائز توجيه معاني كلام الله إلى غير الأغلب عليه من وجوهه عند المخاطبين به ففي توجيهه إلى غير الأغلب مخالفة لتأويل أهل العلم ، وشاهد عدل على خطأ ذلك المذهب اهـ . باختصار وتصرف (١)

وهذا المنحى منحى طيب جيد لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فعند الاختلاف والشك في تفسير كلمة منه وعدم وجود دليل شرعي يوضح المراد ينبغي بل يتحتم الاحتكام إلى المشهور المعروف المألوف من كلام العرب الذين نزل بلسانهم وترجيحه والاستمساك به ، ولايصح الاحتكام إلى غير المشهور المعروف من كلامهم لما في ذلك من الشطط والبعد عن الصواب وسلوك مسلك الإغراب والإخفاء بلا مبرر .

((اهتمامه بالأحكام الفقهية))

*****

ويعنى العلامة ابن جرير في خلال تفسيره لآيات الأحكام بذكر الآثار التي تتضمن أحكاما فقهية ، ويعرض معها أقوال العلماء الأئمة ومذاهبهم ، ويوازن بينها ، ثم ينتهي في كل مسألة فقهية

---

(١) جامع البيان للطبري ج١٦ ، ص١٥١ -١٥٣

إلى رأى يختاره ويرجحه ، ويدلل لاختياره وترجيحه بأدلة علمية قيمة ·

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ···· الآية [1] يقول :

ثم اختلف أهل العلم فى المرض الذى أباح الله معه الإفطار وأوجب معه عدة من أيام آخر :-

فقال بعضهم : هو المرض الذى لايطيق صاحبه معه القيام لصلاته ····

وقال بعضهم : هو كل مرض كان الأغلب من أمر صاحبه بالصوم الزيادة فى علته زيادة غير محتملة ، وذلك هو قول محمد بن إدريس الشافعى ، حدثنا بذلك عنه الربيع ·

وقال آخرون : هو مرض يسمى مرضا ····

ثم قال : ابن جرير بعد عرضه للأقوال السالفة د عزوة إلى أصحابها وذكر الآثار المروية بالسند :

والصواب من القول فى ذلك عندنا أن المرض الذى أذن الله

---

(١) سورة البقرة /١٨٥

تعالى ذكره بالإفطار معه فى شهر رمضان من كان الصوم جاهده جهدا غير محتمل ، فكل من كان كذلك فله الإفطار وقضاء عدة من أيام أخر ، وذلك أنه إذا بلغ ذلك الأمر فإن لم يكن مأذونا له فى الأفطار فقد كلف عسرا ، ومنع يسرا ، وذلك غير الذى أخبر الله أنه أراده بخلقه بقوله : (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) . وأما من كان الصوم غير جاهده فهو بمعنى الصحيح الذى يطيق الصوم ، فعليه أداء فرضه اهـ (١)

وعند تفسير قوله تعالى : لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ... الاية (٢) يقول :

واختلف أهل العلم فى صفة الصوم الذى أوجبه الله فى كفارة اليمين :

فقال بعضهم : صفته أن يكون مواصلا بين الأيام الثلاثة غير مفرقها ....

وقال آخرون : جائز لمن صامهن أن يصومهن كيف شاء مجتمعات ومفترقات .....

---

(١) جامع البيان للطبرى ج٢ ص١٤٩ -١٥٠

(٢) سورة المائدة ٨٩ .

ثم قال الإمام ابن جرير بعد ذكره للآثار بأسانيدها المتضمنة لهذين القولين الآنفين :-

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى أوجب على من لزمته كفارة يمين إذا لم يجد إلى تكفيرها بالإطعام أو الكسوة أو العتق سبيلا أن يكفرها بصيام ثلاثة أيام ، ولم يشرط في ذلك متتابعة ، فكيفما صامهن المكفر مفرقة ومتتابعة أجزأه ، لأن الله تعالى إنما أوجب عليه صيام ثلاثة أيام ، فكيفما أتى بصومهن أجزأ ، فأما ماروى عن أبي وابن مسعود من قراءتهما فصيام ثلاثة أيام متتابعات " فذلك خلاف مافي مصاحفنا ، وغير جائز لنا أن نشهد بشيء ليس في مصاحفنا من الكلام أنه من كتاب الله ، غير أني أختار للصائم في كفارة اليمين أن يتابع بين الأيام الثلاثة ولايفرق ، لأنه لاخلاف بين الجميع أنه إذا فعل ذلك فقد أجزأ ذلك عنه من كفارته ، وهم في غير ذلك مختلفون ففعل مالايختلف في جوازه أحب إلى وإن كان الآخر جائزا اهـ (١)

فترى أنه يجيز لمن انتهى به الأمر في كفارة اليمين إلى الصوم أن يصوم الأيام الثلاثة متتابعة ، وأن يصومها متفرقة ، ويميل في استحسان إلى القول بصيامها متتابعة معللا لذلك ،

---

(١) جامع البيان للطبري ج٧ ، ص٣٠ -٣١

ويبين أن القراءة الواردة بالتتابع والمروية عن بعض السلف قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصاحف ، وهي قراءة تفسيرية ·

وعند تفسير قوله تعالى : والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ··· الآية (١) يقول :

وكان بعض أهل العلم يرى أن في هذه الآية دلالة على تحريم أكل لحوم الخيل ·········

وكان جماعة غيرهم من أهل العلم يخالفونهم في هذا التأويل ويرون أن ذلك غير دال على تحريم شيء وأن الله جل ثناؤه إنما عرف عباده بهذه الآية وسائر ما في أوائل هذه السورة نعمة عليهم ونبههم به على حججه عليهم ، وأدلته على وحدانيته ، وخطأ فعل من يشرك به من أهل الشرك ···

ثم قال ابن جرير عقب ذكره لهذين القولين والآثار الواردة بهما :

والصواب من القول في ذلك عندنا : ماقاله أهل القول الثاني وذلك أنه لو كان في قوله - تعالى ذكره - (لتركبوها) دلالة على أنها لاتصلح (إذ كانت للركوب) للأكل لكان في قوله (فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) دلالة على أنها لاتصلح (إذ كانت

---

(١) سورة النحل ٨ .

للأكل والدفء) للركوب ، وفي إجماع الجميع على أن ركوب ماقال - تعالى ذكره - (ومنها تأكلون) جائز حلال غير حرام : دليل واضح على أن أكل ماقال (لتركبوها) جائز حلال غير حرام إلا بما نص على تحريمه أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء ، وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى البغال بما قد بينا في كتابنا - كتاب الأطعمة - بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع ، إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك ، وانما ذكرنا ماذكرنا ليدل على أن لاوجه لقول من استدل بهذه الآية على تحريم لحم الفرس اهـ (١)

فترى أنه ذكر في خلال تفسيره للآية الكريمة قولين في حكم أكل لحوم الخيل :

الأول : أن في الآية دلالة على تحريم أكل لحومها

الثاني: أن الآية خالية من الدلالة على تحريم أكلها

ورجح ابن جرير القول الثاني مع التعليل ، وبين أن تحريم لحوم الحمر الأهلية والبغال ثابت بأدلة أخرى.

---

(١) جامع البيان للطبري ج١٤ ص٨٢ -٨٣ .

وهكذا نجد ابن جرير يطرق كل مسألة فقهية لها ارتباط بتفسير الآية، ويروي بالسند ما ورد فيها من آثار وهو لا يفيض ولا يسهب في عرض الأحكام الفقهية في تفسيره لأن لها ميدانها الخاص بها وإنما يذكر من كل مسألة القدر المناسب لتفسير الآية ثم يحيل القارىء على ميدانها وتخصصها حتى لا يطيل كتابه ويخرج به من ميدان التفسير .

ولا يترك مسألة ذكرها دون إبداء رأيه وإبراز شخصيته ، وهو أمر متوقع منه ، فقد درس مذهب الإمام الشافعي ببغداد على الحسن بن محمد الصباح الزعفراني وأبي سعيد الإصطخري ، وأكمل درسه بمصر على الربيع بن سليمان المرادي ، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم ، وأخيه عبد الرحمن ، واسماعيل بن إبراهيم المزني وتبحر في فقه الشافعي واتخذ مذهبه مذهبا له ، وأفتى به في بغداد نحو عشر سنوات ، وانتشر المذهب على يديه ، ومن ثم ترجم له تاج الدين السبكي وذكره في كتابه : طبقات الشافعية .

كما درس مذهب الإمام مالك على تلاميذ عبد الله بن وهب ومذهبي الإمامين أبي حنيفة وأحمد .

ولما ازدادت درايته بالمذاهب الفقهية ، وازداد تبحره وتعمقه

فيها ، وتوافرت فيه الأهلية للاجتهاد ، ترك التقيد بمذهب الشافعي ، واجتهد اجتهادا مطلقا ، وصارت له اختيارات فقهية أو دعها كتبه الفقهية المطولة والمختصرة ، بل صار له مذهب فقهي مستقل ، وأتباع ومقلدون يعرفون في التاريخ باسم الجريرية .

لكن صوت مذهبه خفت ، لأن الله تعالى لم يكتب لمذهبه البقاء والانتشار والاستمرار ، ولم يهيء الظروف لنشره ، والتلاميذ الذين يحملونه ويتوارثونه جيلا عن جيل ، وصارت آراؤه واختياراته الفقهية مودعة منثورة في مواطن من تفسيره ، وفي بطون كتبه الموجودة ، وفيما رواه عنه الفقهاء والعلماء .

رحمه الله رحمة واسعة ورحم سائر العلماء

((اهتمامه بالإجماع وكثرة استدلاله به))

*****

ويولي أبو جعفر ابن جرير الإجماع أهمية عظمى في تفسيره ، ويعطيه سلطانا قويا ، ومكانة كبيرة ، فيكثر من الاستشهاد والاستدلال به ويستند إليه فيما يرى ويختار .

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون "(١) يقول :

(١) سورة البقرة /١١ .

أختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآيـة :ـ

فروى عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول : لم يجيء هؤلاء بعد ...

وقال آخرون كابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم المنافقون : أما لاتفسدوا في الأرض فإن الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية.

وقال الربيع ـ أي ابن أنس ـ لاتفسدوا في الأرض معناه: لاتعصوا فيها ، فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله جل ثناؤه لأن من عصى الله في الأرض أوأمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض ، لأن إصلاح الأرض والسماء بالطاعة .

ثم قال أبو جعفر بعد ذكره مايتعلق بكل قول من رواية :

وأولى التأويلين بالآية [(١)] تأويل من قال : إن قول الله تبارك اسمه (وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان معنيا بها كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم الى يوم القيامة ، وقد يحتمل قول سلمان عند تلاوة هذه الآية :

---

(١) المذكور ثلاثة تأويلات ، وأبو جعفر ذهب إلى أنها تأويلان لأن التأويل الثالث عائد إلى الثاني.

ماجاء هؤلاء بعد : أن يكون قاله بعد فناء الذين كانوا بهـــذه الصفة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا منه عمن جاء منهم بعدهم ، ولما يجيء بعد ، لأنه عنى أنه لم يمض ممن هـــذه صفته أحد .

وانما قلنا أولى التأويلين بالآية ماذكرنا : لإجماع الحجة مـــن أهل التأويل على أن ذلك صفة من كان بين ظهرانى أصحاب رســـول الله صلى الله عليه وسلم على عهد رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، من المنافقين ، وأن هذه الآيات فيهم نزلت ، والتأويـــل المجمع عليه أولى بتأويل القرآن ، من قول لادلالة على صحتـــه من أصل ولانظير اهـ (١) .

وعند تفسير قوله تعالى : فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتـــى تنكح زوجا غيره ... الآية (٢) يقول :

فإن قال قائل : فأى النكاحين عنى الله بقوله (فلا تحل له مـــن بعد حتى تنكح زوجا غيره) ألنكاح الذى هو جماع أم النكاح الـــذى هو عقد تزويج .

---

(١) جامع البيان للطبرى ج١ ص ١٢٥ - ١٢٦ .
(٢) سورة البقرة /٢٣٠

قيل : كلاهما ، وذلك أن المرأة إذا نكحت زوجا نكاح تزويج ثم لم يطأها في ذلك النكاح ناكحها ، ولم يجامعها حتى يطلقها ، لم تحل للأول .

وكذلك إن وطئها واطئ بغير نكاح لم تحل للأول ، لإجماع الأمة جميعا ، فإذ كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن تأويل قوله (فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) نكاحا صحيحا ، ثم يجامعها فيه ثم يطلقها .

فإن قال : فإن ذكر الجماع غير موجود في كتاب الله تعالى ذكره فما الدلالة على أن معناه ما قلت ؟

قيل : الدلالة على ذلك إجماع الأمة جميعا على أن ذلك معناه اهـ (١) .

وفي معرض تفسير قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ... الآية (٢) يقول :

فإن قال قائل : أفكل الرقاب معنى بذلك أو بعضها ؟

---

(١) جامع البيان للطبري ج٢ ص٤٧٥

(٢) سورة المائدة ٨٩

قيل : بل معنى بذلك كل رقبة كانت سليمة من الإقعاد والعمى والخرس وقطع اليدين أو شللهما والجنون المطبق ونظائر ذلك فإن من كان به ذلك أو شيء منه من الرقاب فلا خلاف بين الجميع من الحجة أنه لا يجزى في كفارة اليمين ، فكان معلوما بذلك أن الله تعالى ذكره لم يعنه بالتحرير في هذه الآية ، فأما الصغير والكبير والمسلم والكافر فإنهم معنيون به ٠

وبنحو الذى قلنا في ذلك قال جماعة من أهل العلم ٠٠٠

وقال بعضهم : لايجزىء في الكفارة من الرقاب إلا صحيح ، ويجزى الصغير فيها ٠٠٠٠٠

وقال بعضهم : لايقال للمولود رقبة إلا بعد مدة تأتي عليه ٠٠٠٠

ثم يقول أبو جعفر بعد عرضه للأقوال برواياتها :

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى عم بذكر الرقبة كل رقبة ، فأى رقبة حررها المكفر يمينه في كفارته فقد أدى ماكلف ، إلا ماذكرنا أن الحجة مجمعة على أن الله تعالى لم يعنه بالتحرير ، فذلك خارج من حكم الآية ، وماعدا ذلك فجائز تحريره في الكفارة بظاهر التنزيل ، والمكفر مخير في تكفير يمينه التي حنث فيها بإحدى هذه الحالات الثلاث التي سماها الله في كتابه وذلك : إطعام عشرة مساكين من أوسط مايطعم أهله ، أو كسوتهم

أو تحرير رقبة ، بإجماع من الجميع ، لاخلاف بينهم في ذلك اهـ (١)

فترى أن أبا جعفر في خلال تفسيره للآية المذكورة عرض الأقوال في الرقبة المعنية بالتحرير ، وبين الصواب في المسألة ، وأن في كفارة اليمين تخييرا للمكفر بإحدى الحالات الثلاث ، مستندا في ذلك كله إلى ظاهر التنزيل والإجماع .

الى غير ذلك من الأمثلة المتكاثرة في تفسيره .

وهو مسلك مجيد لأن الإجماع حجة وهو الدليل الشرعي الثالث بعد الكتاب والسنة ، ولاغنى عنه ، ولكل إجماع مستند من الكتاب والسنة أو من أحدهما ، فلا إجماع بدون مستند .

وينبغي أن يعلم القارئ الكريم أن ابن جرير رحمه الله لايعنى بالإجماع ويأخذ به في الجانب الفقهي ومسائله وقضاياه فقط ، وانما يعنى بكل إجماع وفق ميدانه وفنه ، فهو يأخذ بإجماع أهل الفقه في الجانب الفقهي ومسائله كما مر في المثالين الثاني والثالث (٢) ويأخذ بإجماع أهل التفسير - أو التأويل على حد تعبيره - على معنى من المعاني التفسيرية كما مر في المثال الأول ، ويأخذ

---

(١) جامع البيان للطبري ج٧ ، ص٢٧ / ٢٨

(٢) اذا أطلق لفظ -الاجماع- انصرف إلى الإجماع الشرعي الذي ميدانه علم الفقه ، وهو المتبادر إلى الذهن.

باجماع أهل القراءات فى ميدان القراءات ومسائلها ويأخذ بأجماع أهل اللغة أى بالمألوف المشهور فى مسائل اللغة وقضاياها،

وهكذا يعنى باجماع أهل كل ميدان ، ويميل إلى الأخذ به ، ويعيره أهميه عظمى ، ومرت نماذج وشواهد أخرى لذلك.

((عرضه لمسائل علم الكلام))

*****

ويخوض الإمام الطبرى فى خلال تفسيره لكثير من الآيات القرآنية فى مسائل علم الكلام ، ويستقى رأيه فى كل مسألة يتعرض لها من القرآن والسنة ، ولذا فإن آراءه وعقيدته فى المسائل الكلامية موافقة لأهل السنة والجماعة .

ويناقش أصحاب الفرق الدينيه الذين حا وا عن الحق ، فقدموا العقل على النص ، وأعملوا عقولهم فى النصوص وأخضعوها ، ومعاييها قسرا لأفكار وآراء سقيمة مسبقة ورثوها ومالوا إليها وتعصبوا لها .

والناظر فى تفسيره وطريقة عرضه لمسائل علم الكلام ونقاشه لبعض الفرق الدينية يلمح فيه أنه كان رجلا جدلا ، عالما ممتازا فى أمور العقيدة ومسائلها ، خبيرا بوسائل الإقناع ، متمكنا من أساليب المنطق والحجاج.

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : .... غير المغضوب عليهم ولا الضالين "[1] يرد على القدرية فى مسألة الاختيار ويبدأ كلامه عنيفا فيقول :

وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن فى وصف الله - جل ثناؤه النصارى بالضلال بقوله (ولا الضالين) وإضافته الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه ، وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذى وصف به اليهود أنهم (المغضوب عليهم) دلالة على صحة ماقاله إخوانه من جهلة القدرية ، جهلا منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه ، ولو كان الأمر على ماظنه الغبى الذى وصفنا شأنه لوجب أن يكون شأن كل موصوف بصفة أومضاف إليه فعل ، لايجوز أن يكون فيه سبب لغيره ، وأن يكون كل ماكان فيه من ذلك لغيره سبب فالحق فيه أن يكون مضافا الى مسببه ، ولو وجب ذلك لوجب أن يكون خطأ قول القائل : تحركت الشجرة : إذا حركتها الرياح ، واضطربت الأرض : إذا حركتها الزلزلة ، وماأشبه ذلك من الكلام الذى يطول بإحصائه الكتاب.

وفى قول الله جل ثناؤه : حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم "[2]

---

(١) سورة الفاتحة /٧ (٢) سورة يونس عليه السلام /٢٢

باضافة الجرى إلى الفلك وان كان جريها باجراء غيرها إياها مايدل على خطأ التأويل الذى تأوله من وصفنا قوله فى قوله :(ولاالضالين) وادعائه أن فى نسبة الله جل ثناؤه الضلالة إلى من نسبها إليه من النصارى تصحيحا لما ادعى المنكرون أن يكون لله جل ثناؤه فى افعال خلقه سبب من أجله وجدت أفعالهم مع إبانة الله - عز ذكره - نصا فى أى كثيرة من تنزيله أنه المضل الهادى ، فمن ذلك قوله جل ثناؤه : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصيرة غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون " (١) ، فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادى دون غيره.

ولكن القرآن نزل بلسان العرب على ماقد قدمنا البيان عنه فى أول الكتاب ، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه وانكان مسببه غير الذى وجد منه أحيانا وأحيانا الى مسببه وانكان الذى وجد منه الفعل غيره ، فكيف بالفعل الذى يكتسبه العبد كسبا ويوجده الله جل ثناؤه عينا منشأة ، بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسبا له بالقوة منه عليه والاختيار منه له ، والى الله جل ثناؤه بايجاد عينه وانشائها تدبيرا اهـ (٢)

(١) سورة الجاثية /٢٣.

(٢) جامع البيان للطبرى ج١ ص٨٤-٨٥.

ونجده يناقش القدرية كذلك ويرد عليهم فى خلال تفسيره لآيات أخرى كقوله تعالى : إياك نعبد واياك نستعين "[١] وقوله سبحانه ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة "[٢]

وعند تفسيره لقوله تعالى : ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين "[٣] يناقش الجهمية ويرد عليهم ويغمزهم فى فكرتهم عن الإيمان وهى فكرة ضالة مضلة فيقول :

وفى هذه الآية دلالة واضحة على بطول مازعمته الجهمية من أن الإيمان هو التصديق بالقول دون سائر المعانى غيره ، وقد أخبر الله جل ثناؤه عن الذين ذكرهم فى كتابه من أهل النفاق أنهم قالوا بألسنتهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) ثم نفى عنهم أن يكونوا مؤمنين ، إذ كان اعتقادهم غير مصدق قيلهم ذلك ، وقوله (وماهم بمؤمنين) يعنى : بمصدقين فيما يزعمون أنهم به مصدقون اهـ[٤] .

وكثيرا مايتصدى الطبرى فى تفسيره لآراء المعتزلة الاعتقادية ويرد عليها، ويعيب عليهم اعتدادهم بالعقل وتقديمه على النص

---

(١) سورة الفاتحة /٥
(٢) سورة آل عمران /٨
(٣) سورة البقرة /٨
(٤) جامع البيان للطبرى ج١ ص١١٧ -١١٨

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربهـــا ناظرة " (١) يقـول :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلــك : أنـها تنظر إلى ربهـا ....

وقال آخرون : بل معنى ذلك أنها تنتظر الثواب من ربهـا ...

وبعد أن ذكر الطبرى القولين وساق لكل منهما الروايات المتعلقة به اختار القول الأول القائل بإثبات الرؤية ووقوعها للمؤمنين فــى الآخرة ودلل على اختياره فقال :

وأولى القولين فى ذلك عندنا بالصواب : القول الذى ذكرناه عــن الحسن وعكرمة من أن معنى ذلك : تنظر إلى خالقها ، وبذلك جــاء الأثر عن رســول الله صلى اللــه عليه وسلـم .

حدثنى على بن الحسين بن أبجر ، قال : ثنا مصعب بن المقـدام قال : ثنا إسرائيل بن يونس ، عن ثوير ، عن ابن عمر - رضى اللـــه عنهما - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أدنى أهــل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه ألفى سنة ، قال : وإن أفضلهــم منزلة لمن ينظر فى وجه الله كل يوم مرتين ، قال : ثم تلا : وجـوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) قال : بالبياض والصفاء ، قال :

---

(١) سـورة القيامـة ٢٢ - ٢٣

(إلى ربها ناظرة) قال : تنظر كل يوم في وجه الله عز وجل اهـ [1]

وعند تفسيره لقوله تعالى : لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير [2] يطيل النفس في مسألة الرؤية ويكثر من الكلام والحوار حولها ويناقش المنكرين لإثباتها ووقوعها في الآخرة للمؤمنين ويفند شبهاتهم ويحتد في مناقشتهم ثم يقول في نهاية المطاف محذرا من أفكارهم :

ولأهل هذه المقالة مسائل فيها تلبيس ، كرهنا ذكرها واطالة الكتاب بها وبالجواب عنها ، إذ لم يكن قصدنا في كتابنا هذا

---

(١) جامع البيان للطبري ج٢٩ ص١٩٢ -١٩٣ وأخرج نحو الحديث المذكور الإمام أحمد في المسند ج٢ ص١٣ والإمام الترمذي في سننه أبواب صفة الجنة باب ماجاء في رؤية الرب تبارك وتعالى ج٤ ص٩٣ وقال الترمذي : وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن اسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعا ، ورواه عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن ابن عمر موقوفا ، ورواه عبيد الله الأشجعي عن سفيان عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله ولم يرفعه .

(٢) سورة الأنعام /١٠٣

قصد الكشف عن تمويهاتهم ، بل قصدٌ نافيه البيان ، عن تأويل آي الفرقان ، ولكنا ذكرنا القدر الذي ذكرنا ليعلم الناظر في كتابنا هذا أنهم لايرجعون من قولهم إلا إلى مالبس عليهم الشيطان مما يسهل على أهل الحق البيان عن فساده ، وأنهم لايرجعون في قولهم إلى آية من التنزيل محكمة ، ولا إلى رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة ولاسقيمة ، فهم في الظلمات يخبطون ، وفي العمياء يترددون ، نعوذ بالله من الحيرة والضلالة اهـ [١] .

بل إن الطبري يناقش جهلة المتصوفة ويرد عليهم تكاسلهم وتواكلهم الذي يظنونه توكلا فيقول عند تفسير قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ... الآية [٢] :

ففي هذه الآية إبانة من الله تعالى ذكره - عن تكذيب قول الجهلة من المتصوفة المنكرين طلب الأقوات بالتجارات والصناعات ، والله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم " :اكتسابا أحل ذلك لها اهـ [٣]

---

(١) جامع البيان للطبري ج٧ ص٣٠٣ - ٣٠٤

(٢) سورة النساء/٢٩ (٣) جامع البيان للطبري ج٥ ، ص ٣٢

وعند تفسيره لقوله تعالى : "... فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ... الآية " (١) يحذر من الخوارج وأمثالهم من أهل الزيغ والبدع ويبين عموم الآية وعدم قصرها على فئة بعينها فيقول :

ولعمري لقد كان في أهل بدر والحديبية الذين شهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار خبر لمن استخبر ، وعبرة لمن استعبر ، لمن كان يعقل أو يبصر ان الخوارج خرجوا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير بالمدينة والشام والعراق ، وأزواجه يومئذ أحياء ، والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثى حروريا قط ، ولارضوا الذى هم عليه ولامالئوهم فيه ، بل كانوا يحدثون بعيب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ، ونعته الذى نعتهم به ، وكانوا يبغضونهم بقلوبهم ويعادونهم بألسنتهم ، وتشتد والله عليهم أيديهم إذا لقوهم ولعمري لوكان أمر الخوارج ، هدى لاجتمع ، ولكنه كان ضلالا فتفرق وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافا كثيرا ، فقد ألاصوا - أي أداروا - هذا الأمر منذ زمان طويل ، فهل أفلحوا فيه يوما أوأنجحوا ، ياسبحان الله ، كيف لايعتبر آخر هؤلاء

(١) سورة آل عمران /٧

القوم بأولهم ؟ لوكانوا على هدى قد أظهره الله وأفلحه ونصره ولكنهم كانوا على باطل أكذبه الله وأدحضه ، فهم كما رأيتهم كلما خرج لهم قرن أدحض الله حجتهم ، وأكذب أحدوثتهم، وأهراق دماءهم ، وإن كتموا كان قرحا فى قلوبهم ، وغما عليهم وإن أظهروه أهراق الله دماءهم ، ذاكم - والله - دين سوء فاجتنبوه والله إن اليهود لبدعة ، وإن النصرانية لبدعة ، وإن الحرورية لبدعة ، وإن السبئية لبدعة ، ما نزل بهن كتاب ، ولا سنهن نبى ...

وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك فإنه معنى بها كل مبتدع فى دين الله بدعة ، فمال قلبه إليها تأويلا منه لبعض متشابه آى القرآن ، ثم حاج به وجادل به أهل الحق ، وعدل عن الواضح من أدلة آيه المحكمات ، إرادة منه بذلك اللبس على أهل الحق من المؤمنين ، وطلبا لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك كائنا من كان وأى أصناف البدعة كان ،من أهل النصرانية كان ، أو اليهودية ، أو المجوسية ، أو كان سبئيا ، أو حروريا ، أو قدريا ، أو جهميا ، كالذى قال صلى الله عليه وسلم : فإذا رأيتم الذين يجادلون به فهم الذين عنى الله فاحذروهم اهـ (١)

---

(١) جامع البيان للطبرى ج٣ ، ص١٧٨ -١٨١ والحديث المذكور رواه ابن جرير فى الموضع المذكور بأسانيد متعددة ، ورواه غيره =

وبالنسبة لمتشابه الصفات نجده يسلك مسلك سلفنا الصالح رضى الله تعالى عنهم وهو : الأخذ بظاهر آيات الصفات والإيمان به، وعدم صرفها عن ظاهرها ، مع تنزيه الله عن التجسيم والتشبيه والمماثلة للحوادث ، ويرد على المشبهة وأضرابهم من المؤولة ، ويرى أن الوقف على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : ... وما يعلم تأويله إلا الله ... الآية (١) هو الأولى والأصوب وما بعده جملة أخرى مستقلة .

وإن شئت فاقرأ فى ذلك تفسيره لقوله تعالى : وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما

= من المحدثين انظر صحيح البخارى كتاب التفسير تفسير سورة آل عمران ج٦ ص٤٢ وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب العلم باب النهى عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهى عن الاختلاف فى القرآن ج٥ ص ٥٢٢ وسنن الترمذى أبواب التفسير سورة آل عمران ج٤ ص٢٩٠ - ٢٩١ وسنن أبى داود كتاب السنة باب مجانبة أهل الأهواء ج٤ ص١٩٨ وسنن الدرامى المقدمة باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع ج١ ص٥٥ وهو مروى عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) سورة آل عمران /٧

نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون [١]
حيث تكلم عن صفة الاستهزاء والمكر والخداع ، وقوله تعالى : ٠٠٠
ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ٠٠٠ الآية [٢] حيث تكلم
عن الاستواء ، وقوله تعالى : " ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا
فثم وجه الله [٣] حيث تكلم عن الوجه ، وقوله تعالى : هل ينظرون
إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ٠٠ الآية [٤] حيث
تكلم عن المجئ ، وقوله جل شأنه : وقالت اليهود يد الله مغولة
٠٠٠ الآية [٥] حيث تحدث عن اليد ، وقوله جل ثناؤه : ولما جاء
موسى لميقاتنا وكلمه ربه ٠٠٠ الآية [٦] حيث تكلم عن صفة الكلام
وقوله عز سلطانه : وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم
القيامة والسماوات مطويات بيمينه [٧] حيث تحدث عن القبضة
واليمين وغيرها من الآيات ٠

وهكذا نجد الإمام الطبرى يدلى بدلوه فى مسائل علم الكلام التى

---

(١) سورة البقرة /١٤ -١٥ (٢) سورة البقرة /٢٩

(٣) سورة البقرة /١١٥ (٤) سورة البقرة /٢١٠

(٥) سورة المائدة /٦٤ (٦) سورة الأعراف ١٤٣

(٧) سورة الزمر /٦٧

التي يذكرها في ثنايا تفسيره لبعض الآيات ، ويذهب في كل مسألة المذهب الرشيد السديد الموافق لما عليه أهل السنة والجماعة ونلمح فيه قوة الحجاج والإقناع ، والحوار والإمتاع ، والغيرة على العقيدة الحقة والتحمس لها ، والعمل جهده على صيانتها وحراستها ، ومما حصنه وعصمه من الزلل والشطط في العقيدة - بعد توفيق الله وهديه - سعة أفقه ، وتعمقه في مختلف العلوم ، وتبحره في الحديث وعلمه العميق به رواية ودراية ٠

وإن ننسى فلا ننسى أنه ألف كتابه - صريح السنة - أبان فيه عن عقيدته التي يدين الله تعالى بها ، وسبق التعريف به أثناء ذكرنا لمؤلفاته ، ولله الحمد والفضل ومنه العون والسداد ، وبه الهداية والرشاد ٠

*****

((اهتمامه بالسؤال والجواب))

*****

والأمام الطبرى يكثر فى تفسيره من توجيه الأسئلة إلى نفسه ثم يتولى الإجابة عنها ، وهو يسلك هذا المسلك ليزيل أى أعتراض وأى غموض أو اشتباه يكون لدى ذهن القارئ ، أو يجول بخاطره، حتى تنجلى أمامه المسألة ويتضح الموضوع الذى يشرحه له.

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : أولئك الذين أشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين "[1] يقول :

فإن قال قائل : فما وجه قوله (فما ربحت تجارتهم) وهل التجارة مماتربح أو تنقص ، فيقال : ربحت أو وضعت ؟

قيل : إن وجه ذلك على غير ماظنت ، وإنما معنى ذلك : فما ربحوا فىتجارتهم ، لافيما اشتروا ولافيما شروا ، ولكن الله جل ثناؤه خاطب بكتابه عربا. فسلك فى خطابه إياهم وبيانه لهم مسلك خطاب بعضهم بعضا ، وبيانهم المستعمل بينهم ، فلما كان فصيحا لديهم قول القائل لآخر : خاب سعيك ، ونام ليلك ، وخسر بيعك ونحو ذلك من الكلام الذى لايخفى على سامعه مايريد قائله خاطبهم بالذى هو فى منطقهم من الكلام فقال : (فما ربحت تجارتهم) إذ كان معقولا عندهم أن الربح إنما هو فى التجارة ، كما النوم

---

(١) سورة البقرة /١٦

في الليل ، فاكتفى بفهم المخاطبين بمعنى ذلك عن أن يقال : فما ربحوا في تجارتهم ، وإن كان ذلك معناه كما قال الشاعر :

وشر المنايا ميت وسط أهله ** كهلك الفتاة أسلم الحى حاضره (٢)

يعني بذلك• وشر المنايا منية ميت وسط أهله ، فاكتفى بفهم سامع قيله مراده من ذلك عن إظهار ماترك إظهاره ، وكما قال رؤبة بن العجاج :

حارث قد فرجت عنى همى ** فنام ليلى وتجلى غمى (٢)

فوصف بالنوم الليل ، ومعناه أنه هو الذى نام ، وكما قال جرير ابن الخطفى :

وأعور من نبهان أما نهاره ** فأعمى وأما ليله فبصير (٣)

فأضاف العمى والإبصار إلى الليل والنهار ، ومراده وصف النبهانى بذلك اهـ (٤) •

(١) انظر ديوان الحطيئة ص٢٦١ والبيتّ له •

(٢) انظر البيت في ديوان رؤبة بن العجاج ص١٤٢

(٣) انظر ديوان جرير ورقم البيت ٢٠٦ هجا الأعور النبهانى جريرا فهجاه جرير ووسمه بأنه أعور النهار يقعد عن الخيرات بصير بالليل يرتكب السيئآت والموبقات وبالغ جرير فوصف النهار بالعمى والليل بالإبصار •

(٤) جامع البيان للطبرى ج١ ص١٣٩ -١٤٠

فترى أنه سأل سؤالا ثم أجاب عنه ، وبين أن الربح أسند إلى التجارة والمراد أهلها جريا على كلام العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ، وذكر نظائر لذلك من أقوالهم وأشعارهم ، فإسناد الربح إلى التجارة من باب المجاز ٠

وعند تفسير قوله تعالى : إن تبدوا الصدقات فنعماهي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم ٠٠٠ الآية (١) يقول :

فإن قال قائل : وماوجه دخول من في قوله (ونكفر عنكم من سيآتكم) ؟

قيل : وجه دخولها في ذلك بمعنى : ونكفر عنكم من سيئاتكم مانشاء تكفيره منها دون جميعها ، ليكون العباد على وجل من الله فلا يتكلوا على وعده ماوعد على الصدقات التي يخفيها المتصدق ، فيجترئوا على حدوده ومعاصيه اهـ (٢) ٠

فترى أنه سأل نفسه ثم أجاب عن السؤال ببيان حكمة دخول (من) الجارة ، وهي الإشارة إلى أن الله سبحانه يكفر بعض الذنوب التي يشاء تكفيرها ، ولايكفر بعضها الآخر لأنه لم يشأ تكفيره ليظل

(١) سورة البقرة /٢٧١

(٢) جامع البيان للطبري ج٣ ،ص٩٤

العباد في رهبة وخشية من الله مجتنبين معاصيه ومناهيه ، واقفين عند حدوده ، غير مغترين برحمته ورأفته ووعده بالثواب الجزيل ٠

وهو واجب المسلم ، واجبه أن يجبا بين الرغبة في الله والرهبة منه ، والطمع فيه والخوف منه ، جل وعلا ٠

وعند تفسير قوله تعالى : ياأليها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فأغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين ٠٠٠ الآية [1] يقول :

فإن قال قائل :وما الدليل على أن المراد بالمسح في الرجلين العموم دون أن يكون خصوصا نظير قولك في المسح بالرأس ؟

قيل : الدليل على ذلك تظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار" [2] ،

---

(١) سورة المائدة /٦

(٢) سنن الترمذي أبواب الطهارة باب ماجاء ويل للأعقاب من النار ج١ ، ص٣٠ والمسند للامام أحمد ج٤ ص١٩١ ٠ وأخرجه كثير من المحدثين بدون كلمتي (بطون الأقدام) :انظر صحيح البخاري كتاب الوضوء باب غسل الأعقاب ج١ ص ٥١ ورواه في مواطن أخرى من صحيحه ، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الطهارة باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما ج١ ،ص٥٢٥ـ٥٢٨ ٠ وسنن أبي داود كتاب الطهارة باب في إسباغ الوضوء ج١ ص٢٤ ٠ وسنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها باب غسل العراقيب ص١٥٤ - ١٥٥ ـ وسنن النسائي كتاب الطهارة باب ايجاب غسل=

ولو كان مسح بعض القدم مجزيا عن عمومها بذلك لما كان لهـــا الويل بترك ماترك مسحه منها بالماء بعد أن يمسح بعضهـا ، لأن من أدى فرض اللهعليه فيما لزمه غسله منها لم يستحق الويل ، بـل يجب أن يكون له الثواب الجزيل ، فوجوب الويل لعقب تارك غسل عقبه في وضوئه أوضح الدليل على وجوب فرض العموم بمسح جميـع القدم بالماء ، وصحة ماقلنا في ذلك ، وفساد ماخالفه اهـ (١) .

فأبو جعفر رحمه الله تعالى سأل نفسه سؤالا ثم أجاب عنه فبيـن أن المطلوب في الوضوء مسح الرجلين إلى الكعبين بالماء على وجه العموم ، ولايصلح ترك جزء منهما بدون مسح بالماء أخذا مـن النصوص والآثار التي تتوعد من يترك جزءا ولو قدر درهم بلا مسح بالماء ، فهو يرى أن مسحهما جميعا بإمرار اليد أو بما يقـوم

= الرجلين ج١ ص٧٧ ومسند أحمد ج٢ ص١٩٣ ، ج٣ ص٣١٦ - ٣٩٠ ، -- وسنن الدارمي كتاب الطهارة والصلاة باب ويل للأعقاب من النار ج١ ص١٧٩ وتفسير ابن جرير في الموطن المذكور . وراوية من الصحابة عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي وعبد الله ابن عمرو وعبد الله بن عمر وعائشة وجابر بن عبد الله وخالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم رضي الله تعالى عنهم .

(١) جامع البيان للطبري ج٦ ، ص١٣١ .

مقامها مع الماء مسح وغسل معا ، وأن فاعل ذلك ماسح غاسل ، وبهذا التوجيه يكون أبو جعفر قد جمع بين قراءة نصب اللام وجرها بالعطف في كلمة (وأرجلكم) ، وهما قراءتان متواتران متكافئتان ·

إلى غير ذلك من الأمثلة التي حواها تفسيره الكبير العظيم ، وهذا المسلك من الإمام الطبري يفيد أنه كان يحيط بالمسألة ويذكرها بكل أطرافها . ولايترك شيئا يقع في نفس القارىء إلا ويجيب عنه ،

وهذه الصيغة التي أكثر منها - صيغة السؤال والجواب - تعرف بالفنقلة ، أي فإن قال قائل : قيل ، فإن قال قائل : قلت ، فإن قلت : قلت ، الخ ، وقد تأثر بمسلكه هذا بعض المفسرين كجار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي في كشافه ·

((انصرافه وإعراضه عما لافائدة فيه))

***

والامام الطبري يهتم بذكر ماله صلة بتفسير الآية ، وبيان معناها والاهتداء بها ، ويصرف نظره عن ذكر ما لافائدة من ذكره ، حتى لايضخم كتابه ، ويملأه حشوا ، ويشوش على القارىء كما فعل غيره من المفسرين ، فهو يعوض عن ذكر الأمور التي لاينفع العلم بها ولايضر الجهل بها ، واذا ما ذكرها فلا يعبأ بها ، ولايعنى بتحقيقها وتمحيصها ،

فمثلا عند تفسيره قوله تعالى : **(فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون)**(١) يقول :

ثم اختلف العلماء في البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة وأى عضو كان ذلك منها :

فقال بعضهم ضرب بفخذ البقرة القتيل ......

وقال آخرون : الذى ضرب به منها هو البضعة التى بين الكتفين ..

وقال آخرون : الذى أمروا أن يضربوه به منها عظم من عظامها ..

وقال آخرون : ضربوا الميت ببعض آرابها ....

ثم قال أبو جعفر بعد ذكره الأقوال برواياتها :

والصواب من القول فى تأويل قوله عندنا **(فقلنا اضربوه ببعضها)** أن يقال : أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ، ليحيا المضروب ، ولا دلالة فى الآية ، ولا خبر تقوم به حجة على أى أبعاضها التى أمر القوم أن يضربوا القتيل به ، وجائز أن يكون الذى أمروا أن يضربوه به هو الفخذ ، وجائز أن يكون ذلك الذنب ، وغضروف الكتف ، وغير ذلك من أبعاضها ، ولا يضر الجهل بأى ذلك ضربوا القتيل ، ولا ينفع العلم به مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها ، فأحياه الله أ هـ .(٢)

---

(١) سورة البقرة الآية (٧٣) .

(٢) انظر جامع البيان للطبرى ج١ ص٣٥٩ - ٣٦٠ .

وعند تفسير قوله تعالى : أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ... الآية (١) يقول :

واختلف أهل التأويل فى الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها :

فقال بعضهم : هو عزير .....

وقال آخرون هو : ارميا بن حلقيا ....

ثم قال أبو جعفر بعد ذكره القولين برواياتهما :

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره عجب نبيه صلى الله عليه وسلم ممن قال إذ رأى قرية خاوية على عروشها : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) ؟ مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء ، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها ، حتى قال : أنى يحييها الله بعد موتها ؟ ولابيان عندنا من الوجه الذى يصح من قبله البيان على اسم قائل ذلك ، وجائز أن يكون ذلك عزيرا وجائزا أن يكون ارميا ، ولاحاجة بنا إلى معرفة اسمه ، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك ، وانما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم واعادتهم بعد فنائهم ، وأنه الذى بيده الحياة والموت ، من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب ، وتثبيت الحجة بذلك على

---

(١) سورة البقرة ٢٥٩

من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل ، باطلاعه نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على مايزيل شكهم في نبوته ، ويقطع عذرهم في رسالته ، إذ كانت هذه الأنباء ، التي أوحاها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد صلى الله عليه وسلم وقومه ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم وقومه منهم ، بل كان أميا وقومه أميون ، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه ، ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبا يقطع العذر ، ويزيل الشك ، ولكن القصد كان إلى ذم قيله ، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه .

واختلف أهل التأويل في القرية التي مر عليها القائل (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) فقال بعضهم : هي بيت المقدس ... وقال آخرون هي : القرية التي كان الله أهلك فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم : موتوا .

ثم قال : أبو جعفر بعد ذكره القولين بروايتهما :

والصواب من القول في ذلك : كالقول في اسم القائل :" أنى يحيى

هذه الله بعد موتها " سواء لايختلفان اه (١)

وفي معرض تفسير قوله تعالى : وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين " (٢) يقول بعد ذكره الاقوال ورواياتها في عدد الدراهم :

والصواب من القول في ذلك أن يقال : ان الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة ، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولاعدد ، ولاوضع عليه دلالة في كتاب ، ولاخبر من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد يحتمل أن يكون كان عشرين ، ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين ، وأن يكون كان أربعين ، وأقل من ذلك وأكثر ، وأى ذلك كان فإنها كانت معدودة غير موزونة ، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين ، ولافي الجهل به دخول ضر فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض ، وماعداه فموضوع عنا تكلف علمه اه (٣)

والأمثلة لهذا المسلك الذى التزمه كثيرة في تفسيره ، تواجه القارئ في كثير من صفحاته ، وهو مسلك حميد ، ومنحى رشيد

---

(١) جامع البيان للطبرى ج٣ ، ص٢٨ -٣٠

(٢) سورة يوسف عليه السلام ٢٠

(٣) جامع البيان للطبرى ج١٢ ص١٧٤

لأن ذكر الأمور التي لادليل عليها من الكتاب والسنة ، وليس على تعيينها وتحديدها أثارة من علم صحيح ، واستدلال رجيح والإفاضة فيها والاهتمام والاشتغال بها اشتغال بأمور لاطائل من ورائها ، والخوض فيها رجم بالغيب ، وقول بالظن والتخمين وتضييع للوقت والعمر بلا عائدة ولافائدة ، ولن يسألنا الله يوم القيامه عن تعيينها والعلم بها .

******
***

((لطائف وبدائع في تفسيره))
****

ويهتم الإمام الطبري في تفسيره بذكر لطائف علمية ، ونكات بديعة ، وكثرة التعليلات والاستنتاجات التي تتصل بالنحو والبلاغة وغيرها ، فتفسيره ليس مجرد حشو للمعلومات وسرد للأقوال والروايات ، وإنما فيه إلى جانب المعلومات والأقوال والروايات مافيه من بديع النكات ، ورفيع اللطائف ، ممايدل على ذكائه وألمعيته ، ونجابته وفطانته ، وبروز شخصيته ، فشخصيته موجودة في كل صفحة من صفحات كتابه ، بل في كل فقرة من فقراته ، وليس مجرد ناقل للمعلومات والروايات ، وإلى أخي القارئ الكريم نماذج لذلك :

فمثلا في خلال تفسيره لقوله تعالى : فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون [(١)] يسأل نفسه سؤلا ثم يجيب عنه فيقول :

فإن قال قائل : وكيف قيل (فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) ولم يقل : في يوم لاريب فيه ؟

قيل : لمخالفة معنى اللام في هذا الموضع معنى في ، وذلك أنه

---

(١) سورة آل عمران / ٢٥

لوكان مكان اللام (فى) لكان معنى الكلام : فكيف إذا جمعناهم فى يوم القيامة ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب ؟ وليس ذلك المعنى فى دخول اللام ، ولكن معناه مع اللام : فكيف إذا جمعناهم لما يحدث فى يوم لاريب فيه ، ولما يكون فى ذلك اليوم من فصل الله القضاء بين خلقه ، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب ؟ فمع اللام فى (ليوم لاريب فيه) نية فعل وخبر مطلوب ، وقد ترك ذكره أخيرا بدلالة دخول اللام فى اليوم عليه منه ، وليس ذلك مع (فى) فلذلك اختيرت اللام فأدخلت فى (ليوم) دون (فى) أهـ (١) .

فترى أنه يعلل لذكر اللام الجارة ليوم دون (فى) الجارة ، أى يعلل لذكر حرف دون ذكر حرف آخر من الحروف الجارة ، ويبين أن ذكر اللام واختيارها هنا أنسب وأحق وأن هذا هو موطنها إذ فى ذكرها دون غيرها إفادة الترهيب والتخويف والتهويل بما يحدث فى ذلك اليوم العظيم الموعود المشهود .

وفى أثناء تفسيره لقوله تعالى : **(فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ...) الآية** (٢)

يسأل نفسه ثم يجيب فيقول :

فإن قال قائل : أو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شك من

---

(١) جامع البيان للطبرى ج٣ ص٢٢٠ (٢) سورة يونس عليه السلام (٩٤)

خبر الله أنه حق يقين حتى قيل له (**فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك**) ؟.

قيل : لا ، وكذلك قال جماعة من أهل العلم ......

فإن قال : فما وجه مخرج هذا الكلام إذن إن كان الأمر على ما وصفت ؟.

قيل : قد بينا فى غير موضع **من كتابنا هذا استجازة العرب قول** القائل منهم لمملوكه : إن كنت مملوكي فانته إلى أمري ، والعبد المأمور بذلك لايشك سيده القائل له ذلك أنه عبده ، كذلك قول الرجل منهم لابنه : إن كنت ابني فبرني ، وهو لايشك فى أبنه أنه أبنه ، وأن ذلك من كلامهم صحيح مستفيض فيهم ، وذكرنا ذلك بشواهد ، وأن منه قول الله تعالى : (**وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله**)(١) ، وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك ، وهذا من ذلك لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم شاكا فى حقيقة خبر الله وصحته ، والله تعالى بذلك من أمره كان عالما ، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضا إذ كان القرآن بلسانهم نزل أهـ .(٢)

فترى أنه بين عدم شك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خبر الله وأنه كان على تمام اليقين وكامل الثقة فى الوحى ، وانما خاطبه مولاه على

---

(١) سورة المائدة الآية (١١٦) .

(٢) جامع البيان للطبرى ج١١ ص١٦٨ -١٦٩ .

نهج مخاطبة العرب بعضهم بعضا بصيغ تفيد التهيج وإلهاب الحماس كما في المثالين اللذين ذكرهما عن العرب ، والتعريض بالغير وتوبيخه على سوء تصرفه وقبح مسلكه كما في آية سورة المائدة فالله تعالى يهيج رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويلهب حماسه ويشحذ همته ، ويحثه بهذه الصيغة على الاستمساك بالعروة الوثقى والاعتصام بالوحي وكأنه يقول له دم على ذلك وازدد فيه ، ويعرض بغيره الذين لم يؤمنوا به ويعادونه ويناوئونه وفي هذا زيادة تشريف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجلال أمره ، وإعلاء قدره .

وانظر ما قاله من نكات ولطائف في تفسيره لقوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) (١) ، وقوله جل علاه : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) (٢) ، وغيرهما من الآى .

وهكذا نرى أن الإمام الطبرى إلى جانب إكثاره من الروايات والمأثورات في تفسيره ، يذكر النكات واللطائف والتعليلات التى يستشفها ويستنتجها ، وأن ذلك المسلك يزين تفسيره ويوشيه ، ويدل على رجاحة عقله وسلامة بنات فكره .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٦) .   (٣) سورة البقرة الآية (٢١) .

ونرى أن تفسيره تفسير متكامل ممتع ، وتعد أبحاثه اللغوية والفكرية والعقلية وآراؤه الاجتهادية التى حواها تفسيره الكبير نواة للتفسير بالرأى المحمود الذى نما وشب عن الطوق ، وترعرع وآتى كله فيما بعد .

أدخل الله بفضله الإمام الطبرى دار كرامته

وغمره بواسع رحمته .

((أقـوال الأئمـة عنـه وعـن تفسيـره))

** وأثـره فـى المفسرين من بعـده **

*****

(أقـوال الأئمة عنه وعن تفسيره)

***

حظى الإمام الطبرى بتقدير كبير وإجلال عظيم من أكابر علماء الإسلام ، وأفاضل الأئمة الأعلام ، القدامى والمحدثين على مر التاريخ في مختلف الأمصار ، وأجمعوا على الثناء عليه وعلى تفسيره : (جامع البيان ٠٠٠) ، وحفظ التاريخ لنا عبارات عبقة وجملا عطره من ثنائهم عنه وعلى تفسيره ، وإلى أخي القارىء طائفة وباقة من أقوالهم :

قال العلامة محمد بن إسحق بن خزيمة (ت٣١١هـ) عنه وعن تفسيره :

" قد نظرت فيه من أوله إلى آخره ، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير " أهـ ٠ (١)

وقال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد غلام ثعلب عن تفسير الطبرى :

" قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره فما وجدت فيه حرفا خطأ في نحو أو لغة " أهـ ٠ (٢)

وقال الخطيب أبو بكر البغدادى عنه وعن تفسيره ونشاطه العلمى :

(أحد أئمة العلماء ، يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه ، لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، وكان حافظا

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج٢ص١٦٤ ومعجم الأدباء لياقوت ج١٨ص٤١ ولسان الميزان لابن حجر ج٥ص١٠٢ وطبقات المفسرين للسيوطى ص٩٧ وطبقات المفسرين للداودى ج٢ص١١١ ٠

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت ج١٨ص٦٢ ٠

لكتاب الله، عارفا بالقراءات، بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في: تاريخ الأمم والملوك، وكتاب " التفسير " الذي لم يصنف أحد مثله، وكتاب " تهذيب الآثار " لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه، وكتاب حسن في القراءات سماه (الجامع) وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه " أهـ.(١)

وهي شهادة جد صادقة، ومطابقة للواقع، وشهادة عالم قدير ومؤرخ خبير مطلع على أحوال الرجال.

وقال الشيخ أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفرايني شيخ الشافعية:

" لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا " أهـ.(٢)

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٢ص١٦٣ وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص١٠٩ .

(٢) انظر تاريخ بغداد للخطيب ج٢ص١٦٣ وطبقات المفسرين للسيوطي ص٩٦ وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص١٠٩ .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني عنه وعن تفسيره :

(كان ابن جرير ممن لاتأخذه في الله لومة لائم ، مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات ، من جاهل ، وحاسد ، وملحد ، فأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه ، وزهده في الدنيا ورفضه لها ، وقناعته باليسير ، وعرض عليه القضاء فأبى ، ومن كتب ابن جرير كتاب: تفسير القرآن فسر فيه القرآن وجوده ، وبين فيه أحكامه وناسخه ومنسوخه ومشكله وغريبه ومعانيه ، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله ، والصحيح لديه من ذلك ، واعراب حروفه ، والكلام على الملحدين فيه ، والقصص وأخبار الأمة ، والقيامة ، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب ، كلمة كلمة ، وآية آية ، من الاستعاذة والى أبي جاد ، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مستقصى لفعل) أهـ.(١)

وقال علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي :

(مكث ابن جرير أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة) أهـ.(٢)

---

(١) انظر طبقات المفسرين للسيوطي ص٩٧ وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص١١١ .

(٢) انظر تاريخ بغداد للخطيب ج٢ ص١٦٢؛ طبقات المفسرين للسيوطي ص٩٧ وطبقات المفسرين للداودي ج٢ ص١٠٩ .

وقال الإمام النووى :

(أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى) أهـ .(١)

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية لما سئل عن أقرب التفاسير إلى الكتاب والسنة :

(وأما التفاسير التى بأيدى الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبرى فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولاينقل عن المهتمين كمقاتل بن بكير والكلبى) أهـ .(٢)

وقال الإمام جلال الدين السيوطى عنه وعن تفسيره وحياته العلمية :

((هو رأس المفسرين على الإطلاق ، أحد الأئمة ، جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظا لكتاب الله ، بصيرا بالمعانى ، فقيها فى أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عالما بأحوال الصحابة والتابعين

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج٢ ص١٩٠ .

(٢) انظر مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص٥٦ والظاهر أن فى النسخة خطأ مطبعيا أو سهوا من المؤلف لأن مقاتلا المقصود هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى الخراسانى وهو مشهور بالتفسير ومتهم بالكذب انظر ميزان الاعتدال للذهبى ج٤ ص١٧٣-١٧٥ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج١٠ ص٢٤٩-٢٥٤ والخلاصة للخزرجى ص٣٨٦ ولم أعثر خلال اطلاعى على رجل اسمه : مقاتل بن بكير .

بصيرا بأيام الناس وأخبارهم ... وله التصانيف العظيمة ، منهـــا : تفسير القرآن وهو أجل التفاسير ، لم يؤلف مثله كما ذكره العلمـــاء قاطبة ، منهم النووى فى تهذيبه ، وذلك لأنه جمع فيه بين الروايـــة والدراية ، ولم يشاركه فى ذلك أحد لاقبله ولا بعده)) .(١)

وقال السيوطى أيضا فى كتابه - الإتقان - :

" وكتابه - يعنى تفسير ابن جرير - أجل التفاسير وأعظمهـــا ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، والإعـــراب والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين " أهـ .(٢)

"ولعظيم قدر تفسير الطبرى كان الإمام السيوطى يديم النظر فيه ، ويمعن فى مطالعته ، ويدمن فى قراءته والاستفادة منه ، والنهل مـــن فيض عذبه ، ويعتبر وجود هذا الكتاب بين يديه ودوام القراءة فيـــه منة من الله عليه ، ونعمة أسداها الله إليه ، وتمنى أن يصرف النظـــر إلى هذا الكتاب ويعينه الله على اختصاره وتهذيبه ، ليكون على كـــل أحد سهل التناول ، كثير التداول " .(٣)

وقال شيخنا الأستاذ الدكتور / محمد الذهبى رحمه الله تعالى :

---

(١) طبقات المفسرين للسيوطى ص٩٥ - ٩٦ وفى قوله جمل من قول الخطيب البغدادى .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج٢ ص١٩٠ .

(٣) انظر طبقات المفسرين للسيوطى ص٩٦ .

((إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذى له الأولية بين كتب التفسير ، أولية زمنية ، وأولية من ناحية الفن والصناعة :

أما أوليته الزمنية : فلأنه أقدم كتاب فى التفسير وصل إلينا وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن ، ولم يصل إلينا شىء منها ، اللهم إلا ما وصل إلينا منها فى ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذى نحن بصدده .

وأما أوليته من ناحية الفن والصناعة : فذلك أمر يرجع الى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التى سلكها فيه مؤلفه حتى أخرجه للناس كتابا له قيمته ومكانته ....

وإن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية جعلت تفسيره مرجعا مهما من مراجع التفسير بالرواية ، فترجيحاته المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة ، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة)) أهـ .(١)

وليس ثناء العلماء والأئمة النجباء على الإمام الطبرى وعلى تفسيره مقصورا ومحصورا فى علماء المسلمين ومؤرخيهم ، بل أثنى عليه وعلى تفسيره وأقر بفضله وعظم قدره ومؤلفاته الباحثون فى الشرق والغرب ، **وأجمع الجميع على أنه عالم لايبارى ، وإمام لايجارى**

---

(١) انظر التفسير والمفسرون لشيخنا الدكتور / محمد حسين الذهبى جـ١ ص٢٠٩ - ٢٢٢ .

فمن ذلك قول نولدكه المستشرق الألماني في عام ١٨٦٠ بعد قراءته لفقرات من تفسير الطبري :

" لو كان بيدنا هذا الكتاب لاستغنينا به عن كل التفاسير المتأخرة ، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تماما . وكان مثل تاريخه الكبير مرجعا لايغيض معينه . أخذ عنه المتأخرون معارفهم " .

وقال جولد زيهر : ومؤلف هذا الكتاب - أي جامع البيان - هو محمد بن جرير الطبري ، من أعظم رجال العلم الاسلامي في جميع العصور ، ولقد قدره العالم الأوربي حق قدره من قبل على أنه في أهم نواجيه أبو التاريخ الاسلامي وذلك من أجل الكتاب التاريخي الضخم الذي أنتفع به .... وتقوم شهرته أكثر من ذلك عند الشرقين على أساس شهرة مؤلفاته الدنيية ، ومن الحق أن مؤلفاته الدنيية في الحديث والفقه وغير ذلك قد أختفت من الحياة العملية في عهد مبكر " أهـ .(١)

هذا ، وبلغ من إعجاب العلماء والدارسين به ، وحبهم له ، وتقديرهم لعلمه ولتفسيره ، أن تداولوا كتابه في التفسير ، بل ترجمه المترجمون إلى لغات مختلفة ، واختصره من اختصره منهم ، ومر بيان ذلك تحت عنوان : ((**التعريف بكتابه في التفسير**)) .

---

(١) انظر مذاهب التفسير الإسلامي لجولدتسيهر ص١٠٧ - ١٠٨ .

(تأثر المفسرين به)

***

ولما كان تفسير الإمام الطبرى دائرة معارف إسلامية واسعة عظيم القدر ،جليل الفوائد ، ناضج الثمرات ،محكم المنهج ، متكامل الخطة والمعلومات ، تأثر به كل المفسرين الذين جاءوا بعده ، فكلهم عالة عليه ، ورجعوا إليه ، واستفادوا منه ، ونهلوا من فيضه :

تأثر به العلامة عبد الحق بن عطية الأندلسى ، ونقل منه كثيرا من الآثار والأفكار فى تفسيره : (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز)) •

وجار الله محمود بن عمر الزمخشرى نقل منه كثيرا من الآثار فى تفسيره : " الكشاف ٠٠٠" ، بل تأثر به فى عرض أسئلة والإجابة عنها أى بصيغة الفنقلة : فإن قال قائل ؟ قلت ، فإن قلت ؟ قلت •

وأبو عبد الله القرطبى فى تفسيره : " الجامع لأحكام القرآن " حيث نقل منه كثيرا من الآثار والروايات والآراء •

والعلامة أبو حيان الأندلسى فى تفسيره : " البحر المحيط " •

والحافظ ابن كثير القرشى الدمشقى فى كتابه : " تفسير القرآن العظيم" فإنه نقل معظم رواياته وآثاره من تفسير الطبرى ، بل كان ينقل أحيانا بعض عبارات الطبرى بنصها •

وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى فى تفسيره : " الــدر

المنثور فى التفسير بالمأثور " وكله تفسير بالأثر ٠

والإمام محمد بن على الشوكانى فى تفسيره : " فتح القدير الجامع بين فنى الروايه والدارية من علم التفسير " ، فهو تفسير جامع - كما يفيد عنوانه - بين الرواية والدراية ، - أى الأثر والرأى - وهو نفس المنهج الذى نهجه الإمام الطبرى فى تفسيره مع وجود الفرق الشاسع بين الإمامين ، والبون الواسع بين الكتابين ٠

وقصارى القول وصفوته وجماعه : أن الذى يوازن ويقارن بين تفسير الطبرى " جامع البيان " وبين غيره من كتب التفسير الأخرى التى صنفت بعده إلى عهدنا هذا يجد أصحابها تأثروا بمنهج الإمام الطبرى فى تفسيره ، وأفادوا منه كثيرا متفاوتين فى إفادتهم كما وكيفا ، وأن تفاسيرهم تدور فى نطاق تفسيره الواسع الراشد الصحيح وتسير فى فلكه الرحب الفسيح ٠

وبعد : فهذا هو العلامة الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، أقر بفضله ومكانته العلمية المرموقة القاصى والدانى ، والمتقدم فى الزمن والمتأخر ، والمسلم والكافر ، والصديق والعدو - والفضل ما شهدت به الأعداء - وتأثر به كافة المفسرين الذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا ، وليست إمامته وريادته ، وزعامته وقيادته مقصورة على التفسير ، بل هو إمام ورائد فيه وفى غيره من

علوم الشريعة واللغة والتاريخ ، فقد خلف تراثا إسلاميا ضخما تناقلته العصور والأجيال ، وكتابه فى التفسير يعتبر نقطة تحول فى تاريخ التفسير ، ونواة انبثقت منها وتفرعت عنها التفاسير الأخرى ، وتعتز وتزهو به المكتبة الإسلامية ، ولاغنى لطالب التفسير عنه ، ولاتجد صفحة من صفحات تفسيره بل فقرة من فقراته خالية من شخصيته العلمية وأصالة تفكيره ، ووعيه العلمى ، وإدراكه العميق الدقيق ، الفائق الرائق ، وكلما أكثر المرء من القراءة المتأنية لكتابه ازدادت محبته له ، ورغبته فيه ، ودرايته به ،وإقباله عليه ، وجد له فيه جديد ثم جديد ، ولاحت له فيه لآلئ حسان فهو على حد قول القائل :

يزيدك وجهه حسنا ** إذا ما زدته نظرا

رضى الله - جل ثناؤه - عن ذلك الإمام ، ومتعه فى الآخرة بدار السلام ، وزاده إنعاما تلو إنعام ٠

** الخـــــاتمـــــة **

((نسـأل اللـــــه الكـــريـم حسنهـــا))

*****

تضمن هذا البحث الكثير من المعلومات المفيدة النافعة الناجعة ويمكن إجمالها في هذه النقاط التالية :

- أن الامام أبا جعفر محمد بن جرير الطبري مختلف في تاريخ مولده فقيل إنه ولد في أواخر عام (٢٢٤هـ) ، وقيل في أوائل عام (٢٢٥هـ) ، أما تاريخ وفاته فمتفق عليه وهو أواخر شهر شوال من عام (٣١٠هـ) أي أنه عاش نحو ستة وثمانين عاما .

- أن مولده كان بآمل طبرستان ، وينسب الى آمل ، والى طبرستان ، والى بغداد بأعتبار استقراره فيها ، واذا أطلق لفظ (الطبري) انصرف إلى أبي جعفر محمد بن جرير ، وكذلك إذا أطلق لفظ ((ابن جرير)) انصرف اليه .

- أنه نشأ نشأة طيبة طاهرة زاكية في أسرة صالحة ورعة ، وبدأ حياته العلمية في وقت مبكر من عمره ، بدأها بحفظ القرآن الكريم وأتم حفظه وله من العمر سبع سنوات ، ثم واصل الدرس والبحث والحفظ وكرس حياته للعلم ووقفها عليه ، وعاش عزبا .

- أنه طوف منذ صغره وحداثة سنه ببلاد كثيرة وأمصار مشهورة : رحل إلى بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من الأقطار ابتغاء لقاء أكابر الشيوخ ، واغتراف العلم وجمعه من مناهله الصافية .

- أنه التقى بشيوخ كثيرين أفاضل ، وشارك الإمام البخاري في بعض شيوخه مثل : أبي علي الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني كما كان له تلاميذ لايحصون كثرة ووفرة .

- أنه برع ومهر في مختلف العلوم والفنون وبخاصة التفسير والقراءات والحديث والفقه والتاريخ ، وخلف مؤلفات كثيرة بعضها موجود ، وكثير منها مفقود ضامه الزمن ، وبعضها مطبوع وبعضها مخطوط ، وبعضها ترجم إلى بعض لغات كالتركية والفارسية والفرنسية ، وبعضها اختصره المختصرون وبعضها علق عليه وذيل له المعلقون والمذيلون ، ولاغرابة في ذلك فالكل ولوع ومشغوف بها لعظمتها ومكانتها ، والطبري كان كثير التأليف متفرغا لنشر العلم والتصنيف ، مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة ، ولو وزعت أوراق مؤلفاته على سني عمره بعد بلوغه الحلم لكان نصيب كل يوم أربع عشرة ورقة ، وكلها كتابات مجودة متقنة نفيسة ثمينة لاتصدر إلا من مثله .

- أن أسلوبه في مؤلفاته أسلوب قوي رصين ، والأفكار مرتبة والمعاني مترابطة مما يدل على تبحره في العلم وتمكنه من اللغة والأدب .

- أنه كان طويل القامة ، قوي البنية ، أسمر اللون يتمع بصحة جيدة ويحافظ على صحته ، مما ساعده على العطاء العلمي والإثراء الديني .

والرحلات العلمية ، وكان متدينا ورعا عفيفا متواضعا نزيهـــا معرضا عن حطام الدنيا ومناصبها ومفاتنها ، صابرا محتسبـــا ، محبا لشيوخه وتلاميذه وأقرانه وبني زمانه لم يضمر شرا لأحـــد ، جامعا لخصال الخير وخلال العلماء الأفاضل والأئمة الأماثـل ٠

- أنه انتقل إلى جوار ربه وفي رحمته في بغداد في شهر شوال من عـام (٣١٠هـ) ودفن جثمانه في داره برحبة يعقوب بعد أن صلى عليـــه خلائق ٠

- أنه رائد المفسرين وإمامهم ، فهو أب التفسير بلا منازع ، كما أنه أب التاريخ بلا مدافع ، فقد ترك كتابـــا في التاريخ تمم به مـــا قام به المؤرخون المتقدمون عليه ، ومهد السبيل للمؤرخيـــن اللاحقين به ، وكتب من قبل بعد استخارة الله تعالى كتابا ضخما في التفسير جامعا بين الرواية والدراية ، والرواية فيه هي الغالبـة ، فسر فيه القرآن كله ، واستقاه من كل التفاسير السابقة عليه وسماه : (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ٠ وكتابه تفوق عليها كلهـــا ، ويقع في ثلاثين جزءا بالقطع الكبير ، وكان الكتـــاب أكبـــر وأضخم من ذلك ، فاختصره في حجمه المذكور الموجود بناء علـــى رغبة طلابه وأحبابه ، ولعظمة هذا الكتاب وأهميته ترجمـــه المترجمون واختصره بعض العلماء ، كما حقق أجزاء منـــه الى بعض اللغات الأخـــرى ٠

من هيأه الله للتحقيق .

- أن الإمام الطبري سلك في تفسيره مسلكا فريدا ونهج نهجا مجيدا حميدا لم يسبق إليه ولم يلحق به ، بدأ كتابه بمقدمة مهمة مفيدة جامعة ، وذكر اسم كل سورة وفسر بالرواية والدراية ووازن بين الروايات والأقوال وجمع بينها إن أمكن الجمع ورجح ما رآه أهلا للترجيح ورد ما رآه جديرا بالرد ، وجال في كل الفنون التي لها صلة بالتفسير في الحدود وبالقدر الذي يتضح به معنى الآية الكريمة .

- أنه ذكر أسماء السور قبل البدء في تفسيرها ، وله طريقته في ذكر التسمية .

- أنه يعنى بذكر الروايات بأسانيدها في تفسيره وله منهجه في ذكرها الدال على سعة علمه وتبحره في علم الحديث وإمامته وجرأته في الحق ، وعده الإمام النووي في طبقة الإمامين : الترمذي والنسائي وعده الحافظ الذهبي في الحديث من رجال الطبقة السادسة .

- أن تفسيره لم يخل من الإسرائليات والروايات الواهية ، وله منهجه في ذكر الروايات الإسرائلية وعرضها ، وليته ربأ بتفسيره عنها أو علق على كل رواية منها بما يدل على حالها لئلا ينخدع بها أحد من القراء غير المتخصصين .

- أنه ينكر على من يفسر القرآن برأيه المجرد غير ناظر إلى المأثور ولاعابيء به ، لما في هذا المسلك من تحويل ميدان التفسير إلى ساحة لتصارع الآراء وتراشق الأفكار بلادليل ولا ضوابط .

- أنه يعنى بذكر القراءات في تفسيره وتوجيهها ، وله منهجه في ذكرها ، وهو إمام من أئمة القراءات ، وله فيها مؤلفات ، وقدهضم القراءات واستوعبها واستظهرها ثم اختار منها قراءة لاتخرج عن المشهور المقبول .

- أنه اهتم بذكر آراء نحاة الكوفة والبصرة في تفسيره ، ووجه المعاني وفق أوجه الإعراب،وقارن بين آراء النحاة واختار الرأي الذي استصوبه ، ولم يتعصب لمذهب بعينه مما يدل على رحابة صدره واستقلال رأيه وبروز شخصيته .

- أنه اهتم بذكر أقوال أهل اللغة وأرباب المعاني كالفراء والزجاج ، وناقش في موضوعية رأي من ينبغي مناقشة رأيه بلا هوى ولاتجن ، وله منهجه في ذلك .

- أنه استشهد بأبيات من الشعر العربي الأصيل لتوضيح معنى من المعاني أو توجيه قول من الأقوال ، ويعزو أحيانا بعض الأبيات الى قائليها ، ولايعزو أحيانا بعضها الى أصحابها ، وهذا يدل على إلمامه

بالشعر والشعراء ودراسته له ودرايته به .

- أنه كان يحتكم في الرأي الذي يختاره والمعنى الذي يستصوبه إلى ظاهر القران الكريم إن لم تكن معه حجة قوية معتمدة تفسير له الطريق وتهديه السبيل ، أما إذا كان معه الدليل المعتمد المقبول فانه يتخلى عن ظاهر التنزيل ، ويتحلى ويصير إلى الدليل

- أنه كان يحتكم في اختياراته اللغوية في تفسير بعض الألفاظ وترجيح بعض المعاني - إن أعياه الدليل المقبول - إلى المشهور المعروف المألوف من كلام العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم .

- أنه يعنى بذكر الأحكام الفقهية في تفسيره ويوازن بينها ويختار ما يراه أهلا للاختيار ، وله قدمه الراسخة في الفقه فقد بلغ فيه القمة وتربع على الذروة ، وبعد أن كان شافعيا صار بحق مجتهدا مطلقا لم يقيد نفسه بمذهب معين ، بل كان له مذهبه ومقلدوه ويعرفون في التاريخ باسم الجريرية ، لكن مذهبه لم يطل بقاؤه ولم يجد من يحمله ويتوارثه من أتباعه فضاع مذهبه في زحمة المذاهب ولم تبق إلا آراؤه واختياراته الفقهية في بطون الكتب وصفحات المراجع .

- أنه كان يعنى في تفسيره بالاستدلال بالإجماع ، ويعيره أهمية عظمى ومكانة كبرى ، ويهتم بذكر إجماع أهل كل فن واتفاقهم ٠

- أنه خاض في مسائل علم الكلام ، وانتصر لأهل السنة والجماعة ؛ وهو مسلك متوقع من كل متبحر في علم الحديث ، وناقش أهل الفرق المعوجة عن الحق نقاش عالم ممتاز دقيق خبير بوسائل الاقناع غيور على عقيدته الحقه متحمس لها ولصيانتها ٠

- أنه يكثر من ذكر الأسئلة ويوجهها إلى نفسه ثم ينبري للإجابة عليها ، ولعل هدفه من ذلك تلوين الكلام ، وتنبيه القارئ ، وتنشيط ذهنه ، وازالة أي شبهة تجول بخاطره ، حتى تنجلي له المسألة ، وتسفر إسفار الصبح لذي عينين ٠

- أنه أعرض عن ذكر مالافائدة منه في التفسير ، وعاب غيره من الذين يشحنون كتبهم بما لاطائل تحته ولاعائدة من ورائه ، وعاب من يضيعون وقتهم ويشغلون بالهم بتحقيق وتمحيص مالا ينفع العلم به ، ولايضر الجهل به ، يلقون الكلام على عواهنه ، ويقولون بالظن والتخمين ، ويرجمون بالغيب ٠

- أنه عنى في تفسيره بذكر نكات علمية ولطائف بهية وتعليلات واستنباطات ، وكلها تدل على سعة أفقه ، ورحب عقله ، وغزارة علمه

ونجابتــه وفطانتـه ٠

- أن الإمام الطبرى أب المفسرين ورائدهم ، وكلهم عالة عليه ، ونقلة عنه ، وأن تفسيره تفسير ممتع متكامل محكم الخطة ، جامع لمباحث شتى ، ومباحثه المتنوعة استفاد منها كل العلماء والدارسيـــــن وكانت نواة للتفسير بالرأى المحمود ٠

- أن أفاضل العلماء المتقدمين والمتأخرين والباحثين فى الشـــــرق والغرب أثنوا على الإمام الطبرى وعلى تفسيره وقالوا عنه وعن تفسيره كلاما عطرا وعبارات تفوح شذى ، فهم عرفوه - من العوف - بعباراتهـم بما هو أهله ، وعرفوا تفسيره بما يستحقه ، وأقر بفضله أعداء الإسلام " والفضل مــا شهدت بــه الأعداء " ٠

- أن كل المفسرين تأثروا بالإمام الطبرى وبتفسيره ونهلوا منه ، ومـا من أحد إلا رجع إلى تفسيره وأفاد منه ، فكلهم تلاميذه ومستفيـدون منه ، وتسبح تفاسيرهم فى فلك تفسيره الواسع الضخم ، الفسيح الرحب ولا يستغنى عن تفسيره طالب علم ٠

- أن العلامة الطبرى إمام متعدد المواهب ، متنوع الجوانب العلميـة بل هو مدرسة كبرى مختلفة العلوم والمعارف ، ولايمكن لباحث واحـد أن يوفيه حقه ، فهو يحتاج إلى أعداد من الباحثين المتخصصين كـــل

يبحث في زاوية من زواياه العلمية وركن من أركانه الثقافية .

غمر اللـــه الإمـــام الطبـــري بفيـض رحمتـــه

وأسكنـــه فسيـح جنتـه

((فهـرس المراجـــع))

****

رجعت فى تأليف هذا الكتاب إلى مراجع كثيرة ومصادر عديـــدة فى أولها وعلى رأسها :" القرآن الكريـم " ٠

والى أخى القارىء المراجع مرتبة وفق ترتيب حروف المعجم :

١ـ الإتقـان فى علوم القـــرآن :

لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت٩١١ هـ وبهامشه : إعجاز القرآن للقاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ت ٤٠٤ هـ ٠ مطبعة مصطفى البابى الحلبـــى بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ ،١٩٥١م ٠

٢ـ أسـد الغابة فى معرفـة الصحابــة :

لعز الدين بن ألاثير الجزرى ت ٦٣٠ هـ ، بتحقيق محمـــد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ٠ مطبعة دار الشعب

٣ـ البداية والنهايـــــــــــة :

للحافظ عماد الدين أبى الفداء اسماعيل بن عمر بـــن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤هـ ، مطبعة السعـــــادة بالقاهرة ٠

٤ـ تاريخ بغـــــداد :

للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغـــدادى ت ٤٦٣ هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت٠

٥ـ تاريخ الرسل والملوك :

للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ بتحقيق الاستاذ / محمد أبو الفضل ابراهيـــم ، دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة٠

٦- تذكـــرة الحفــــاظ :

لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمــان الذهبي ت ٧٤٨ هـ ٠ دار الفكـر العربـي ٠

٧- التفسيـــر والمفســرون :

لأستاذنا الدكتور / محمد حسين الذهبي ت١٣٩٧ هـ مطابع دار الكتاب العربي بمصر ٠ الطبعة الأولــــى ١٣٨١ هـ ، ١٩٦١م ٠

٨- تفسيرالقرآن العظيـــم :

للحافظابن كثير القرشي الدمشقي ، مطبعة عيســـى البابي الحلبي ٠

٩- تهذيب الأسماء واللغات :

للإمام النووي أبي زكريا محي الدين بن شرف الديـــن ت ٦٧٦ هـ ٠ دار الكتب العلمية - بيروت ٠

١٠- تهذيب تاريخ دمشق الكبيـــر :

لابن عساكر ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بـــن هبة الله الشافعي ت ٥٧١ هـ ، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ت ١٣٤٦ هـ ، دار المسيرة - بيـــروت ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩م

١١ - تهذيـب التهذيـــب :

لابن حجر العسقلاني أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م٠

١٢- جامع البيان عن تأويل آي القـرآن :

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، مطبعة مصطفـــى البابي الحلبي الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤م٠

١٣ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال :
للخزرجي صفي الدين أحمد بن عبد الله ت ٩٢٣ هـ ،
مكتب المطبوعات الإسلامية حلب بسوريا - بيروت
بلبنان ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.

١٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور :
لجلال الدين السيوطي ، وبهامشه : القرآن الكريم
وتفسير لابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، دار
المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

١٥- ديوان الأعشى الكبير :
ميمون بن قيس . بشرح وتعليق الدكتور / محمد محمد
حسين مؤسسة الرسالة الطبعة السابعة ١٤٠٣ هـ ،
١٩٨٣م.

١٦ - ديوان حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه ت ٥٤هـ وقليل غير ذلك
بتحقيق ومراجعة الدكتور / سيد حنفي حسين - وحسين
كامل الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م

١٨- ديوان دريد بن الصمة الجشمي :
بتقديم الدكتور / شاكر الفحام ، وتحقيق محمد خير
البقاعي - دار قتيبة ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ .

١٧ - ديوان الحطيئة :
جرول بن أوس . المؤسسة العربية للطباعة والنشر
بيروت .

١٩ - ديوان رؤبة بن العجاج :
وهو ضمن كتاب بعنوان : مجموع أشعار العرب"
بتصحيح وترتيب وليم بن الورد ، دار الآفاق الجديدة
بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

٢٠- ديـوان الفـرزدق :
أبى فراس همام بن غالب ت ١١٠ هـ دار صادر بيـروت
١٣٨٦ هـ ، ١٩٦٦م٠

٢١- ديوان النابغة الذبياني :
أبي أمامة زياد بن معاوية ، بتحقيق الأستاذ فـوزى
عطوة الشركة اللبنانية للطباعة والنشر - بيـروت
١٩٦٩م٠

٢٢- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى :
للعلامة السيد محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠ هـ
مطبعة دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨م٠

٢٣- سنن أبن ماجـه :
أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت ٢٧٥ هـ بتحقيق
محمد فؤاد عبد الباقى ، مطبعة عيسى البابى الحلبـى
بالقاهرة ٠

٢٤- سنن الترمـذى :
أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت٢٧٩هـ بتحقيق
عبد الوهاب عبد اللطيف والشيخ عبد الرحمن عثمـان
مطبعة المدنى، ومطبعة الفجالة بالقاهرة ١٣٨٤هـ،١٩٦٤م٠

٢٥- سنن الدارمى:
أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام
ت ٢٥٥ هـ ، مطبعة دار الكتب العلمية ٠ بيـروت

٢٦- سنن النسائي :
أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب ت ٣٠٣ هـ وعليها شرح "زهر الربى على المجتبى" للسيوطي ، وعليها حاشية ثانية لأبي الحسن محمد بن عبد الهادي السندي ت ١١٣٨ هـ . مطبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٢٧- سير أعلام النبلاء :
للحافظ شمس الدين الذهبي بتحقيق وتعليق شعيب الأرنؤوط وصالح السهر ، مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤م.

٢٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب :
لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩ هـ دار المسيرة - بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م.

٢٩- صحيح البخاري :
أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦ هـ مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٣٠- صحيح مسلم :
مسلم بن حجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ت٢٦١ هـ ومعه شرح النووي أبي زكريا يحي بن شرف بتحقيق عبد الله بن أبي زينة ، مطبعة دار الشعب بالقاهرة

٣١- طبقات الشافعية الكبرى :
لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت٧٧١ هـ بتحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الاولى ، مطبعة

عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٥ م٠

٣٢- طبقات المفسرين :

لجلال الدين السيوطي بتحقيق علي محمد عمر مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦م٠

٣٣- طبقات المفسرين :

للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي ت ٩٤٥ هـ ٠ بتحقيق علي محمد عمر ٠ نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ٠ الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م٠

٣٤ - غاية النهاية في طبقات القراء :

لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري ت ٨٣٢ هـ نشره ج ٠ برجستراسر - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ -١٩٨٢م٠

٣٥ - الفهرست :

لابن النديم محمد ابن إسحق ت ٣٨٥ هـ تقريبا ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ٠

٣٦- القاموس المحيط :

للفيروزابادي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ت ٨١٧ هـ مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة٠

٣٧- لسان العرب :

لابن منظور جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد ت ٧١١ هـ مطبعة دار المعارف بالقاهرة بتحقيق الأستاذ / عبد الله علي الكبير وغيره من العاملين بدار المعارف ٠

٣٨- لســـان الميـــزان :
لابن حجر العسقلانى شهاب الدين أبى الفضل أحمد ابن على ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظاميـــة بالهند حيدر آباد الوكن الطبعة الأولى ١٣٣١ هـ ٠

٣٩- مذاهب التفسير الاسلامـــى :
للمستشرق اجنتس جولد تسيهر ٠ بترجمـــة الدكتور عبد الحليم النجار ، دار اقرأ الطبعـــة الثالثة ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥م

٤٠- المســـند :
للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ت ٢٤١ هـ وبهامشـه كتاب : منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال " للمتقى الهندى ت ٩٧٥ هـ ، مطبعة المكتب الإسلامى بيروت الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م

٤١- معجم الأدبـــاء :
لشهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى الرومـــى ت ٦٢٦ هـ دار المأمون بمصر ١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨م٠

٤٢ - المفردات فى غريب القرآن :
للعلامة أبى القاسم الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهانى ت ٥٠٢ هـ بتحقيق محمد سيد كيلانى٠ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٨١ هـ -١٩٦١م٠

٤٣- مقدمة فى أصول التفسيـر :
لشيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨ هـ ٠ المطبعة السلفية بالقاهرة ٠ الطبعـــه الثانية ١٣٨٥ هـ ٠

٤٤ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال :
للحافظ أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي بتحقيق علي محمد البجاوي ٠ دار المعرفة بيروت٠

٤٥ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر :
للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير ت ٦٠٦ هـ بتحقيق طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي ٠ دار الفكر ٠

٤٦ـ الوافي بالوفيات :
لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، بمراجعة محمد إبن ابراهيم بن عمر ، محمد بن الحسين بن محمد ، دار النشر فرانز شتايز بڤيسبادن ٠ الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ ١٩٧٤ م٠

٤٧ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر إبن خلكان ت ٦٨١ هـ بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ـ بيروت ١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧م٠

****
****
*****
***

((فهـرس الموضـوعـات))

***

*****

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين وآخر المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

" رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين آمين "

****

رقـــم الايـداع بـدار الكتـب
١٩٩٠ / ٤٩٢٢